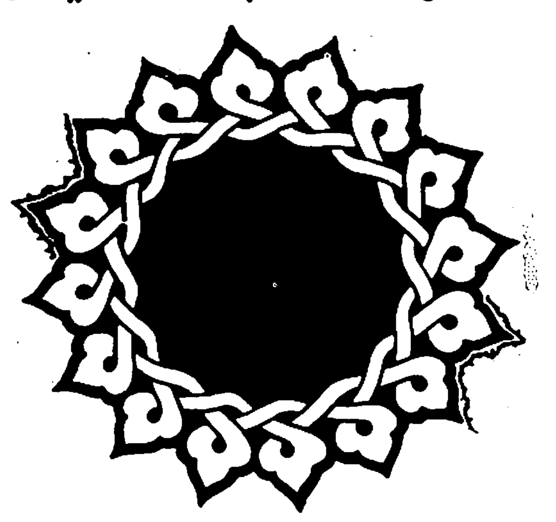
البعث الإسلامي

المنهج والشروط

وحيد الدين خان

ترجمة محسن عثمان الندوي

مراجعة د. عبد الحليم عويس



دار الصحوة للنشر والتوزيع

وحيد الدين خان

الطبعة الأولى

قضية البعث الاسـلامى

١٤٠٥ هـ ــ ١٩٨٤ م

قضية

البعث الإسلامي

المنهج والشروط

وحيد الدين خان

ترجمة
محسن عثمان الندوي

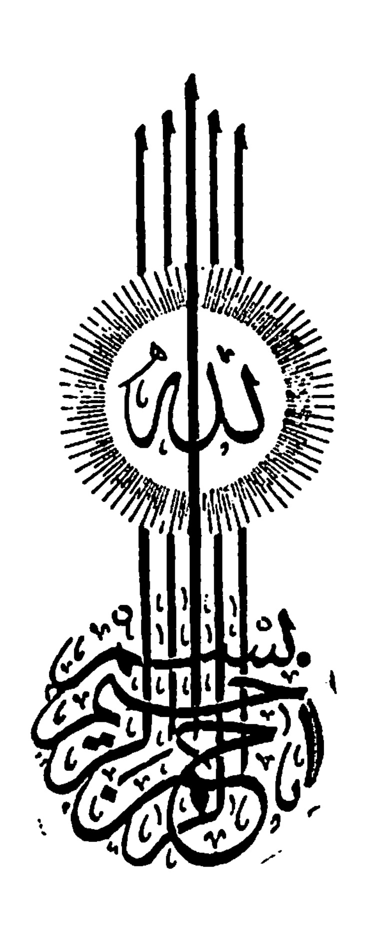
مراجعة
د. عبد الحليم عويس

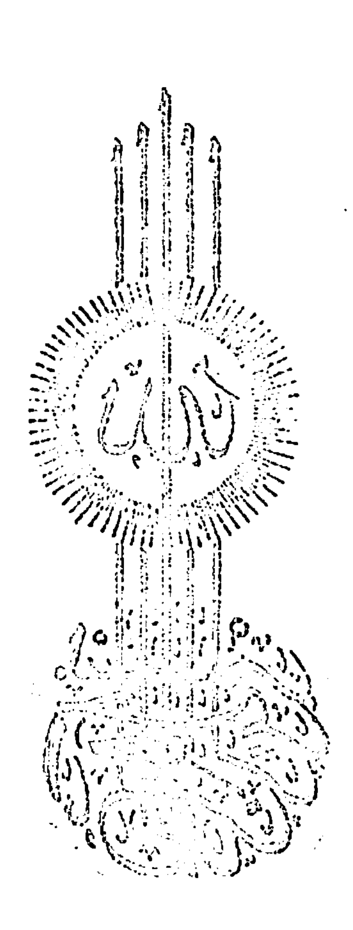
الناشر
دار الصحوة للنشر والتوزيع

مطبعة دار التـأليف

٨ و ٩ شـارع يعقوب بالمالية

تليفون ٢١٨٢٥


الله
بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة

بقلم الدكتور عبد الحليم عويس

هذه هي الترجمة العربية لكتاب « إحياء الإسلام فى المنظور القريب » للمفكر الإسلامى الهندى الكبير وحيد الدين خان .. الذى عرفه قراء العربية من خلال كتبه الكثيرة التى يقف فى قمتها « الإسلام يتحدى » ، و« الدين فى مواجهة العلم ».

وعندما أوكل إلى العلامة الكبير « وحيد الدين خان » مراجعة الكتاب ، وفوضنى فى نشره .. رأيت أن الإسم الذى اختاره الأخ المترجم قد يجد بعض الاعتراضات ، من حيث إن الإسلام فى غير حاجة إلى (إحياء) وإنما الذى يحتاج إلى هذا (الإحياء) هم المسلمون .. أو هى (علوم الدين) وطرائق عرضه ، وليس الإسلام نفسه .. فدين الله (الإسلام) — كما وصفه أحد المستشرقين — (غض طرى كأن عهده بالوجود (أمس) وتخلصاً من مثل هذا الاعتراض رأيت تسميته « قضية البعث الإسلامى : المنهج والشروط » مؤكداً أن هذه التسمية تتمتع بالدقة نفسها التى تتمتع بها التسمية السابقة ، وهى تعبير صحيح تماماً عن (قضية هذا الكتاب) !!

وقد جرت العادة عند ترجمة الكتب أن يعرف — فى التقديم — بمؤلفها لكنى أجد أن العلامة « وحيد الدين خان » ، قد تجاوز بالنسبة للقارىء العربى — هذا الأمر .. وبالتالى ، فأنا أسمح لنفسى بتجاوزه ..

وأما هذا الكتاب فهو (شىء جديد) بكل معانى الجدة بالنسبة للقارىء العربى ، ولعله سيخالف — فى جملته — المسار الذى درج معظم

العاملين للإسلام على السير عليه .. ومن هنا فأنا أتوقع أن يختلف معه كثيرون .. لكن الجدير بالتنويه هنا أنه فى عالم (الفكر الإسلامى) ثمة مجال للصواب والخطأ .. والمهم أن تكون عندنا الجرأة لنقرأ الآخرين ، ونحاورهم ثم نأخذ ما نأخذ ، وندع ما ندع .. وليسمح لى القارىء الكريم — وأنا رجل وثيق الصلة بالعمل الإسلامى منذ عشرين سنة أو أكثر — أن أصارحه بأن ما ورد فى هذا الكتاب جدير بأن نضعه موضع الاعتبار والاحترام ، وأن نوقن بأن (قضية هذا الكتاب) صحيحة إلى حد كبير ، حتى وإن اختلفنا مع المؤلف فى بعض الجزئيات وصور التطبيق .. وأكدنا أننا لانعتقد أن كلام المؤلف لا يمكن أن يغمط الجهاد حقه ، كما أنه لا يمكن أن يجعل الدعوة تقف — دائماً — عند المستوى الفردى .. وفى ضوء احترام هذين العنصرين أؤكد أن تجربتنا فى التاريخ تؤيد صدق المنهج الذى سلكه المؤلف ، كما أن تجربتنا المعاشة تؤيده كذلك .

ومن ناحية المبدأ يجب علينا جميعاً الإفادة من آراء الآخرين حتى ولو تركنا بعض تصوراتهم الفرعية .. ومن ثم يجب علينا أن نأخذ (٨٠٪) على الأقل — من وجهة نظرى — مما انتهى إليه العلامة وحيد الدين خان ، فى دراسته هذه الممتعة حول (قضية البعث الإسلامى — المنهج والشروط) مقدرين — فى الوقت نفسه — للعمل الجماعى الواضح المسالم ، وللجهاد فى ظروفه المقتضية له دورهما ...!!

إننى لن أسمح لنفسى باستعراض قضايا الكتاب المختلفة التى تدور حول قضيته الأساسية .. كما أننى لن أستعرض فصول الكتاب بالصورة التقليدية . وإنما أكتفى بهذه اللمحة العابرة حول احتمالات الإثارة التى أتوقعها لهذا الكتاب .. ويعلم الله أننى قد سمحت لنفسى بأكثر مما يسمح به عادة

(للمراجع) حتى أفسح مجالا للتعاون السمح ، والتبادل الكريم للآراء ، ولا أترك حبة الحنطة ترفض لمجرد بعض القشور الهشة العالقة بها .

ولعل أخى الأستاذ « على عبد المحسن جبر » الذى قدم لى بعض العون واستحق منى الشكر .. يشهد بهذا العبء الذى تحملته عن طواعية ، اعتماداً على ثقة متبادلة تجمعنى بالعلامة « وحيد الدين خان » ..

وإنى لجد مسرور لمعايشتى هذا الكتاب فترة طويلة خلال المراجعة .. لقد كانت بحق رحلة مضنية .. لكنى تعلمت منها الكثير ... والجديد ؟

دكتور عبد الحليم عويس

توطئة

(١) في منطقة جبلية قرب نيروبي بإفريقيا الوسطى تدعى بـ « كيغالي Kigall » – تتميز بمناظرها الطبيعية الخلابة – أقيم مركز إسلامي كبير يسمى بالفرنسية « Lecentre Cultural Islamique » (المركز الثقافي الإسلامي) حيث تقرر عقد مؤتمر للشباب العرب المثقفين في سنة ١٩٨١ وكنت مدعواً لذلك الاجتماع بغية إلقاء عدة محاضرات حول الدعوة الإسلامية وإحياء الإسلام.

وهذا الكتاب هو باكورة المحاضرات التي أعددتها لذلك الاجتماع الذي أجّل ولم يقيّض لي أن أحضره – وتدور هذه المحاضرات – رغم تكرار بعض الأفكار – حول محور واحد: هو أن البعث الإسلامي الجديد يقتضي منا الآن (العقل المفكر) و(التخطيط الصائب) و(العمل الجاد) وليس الأعمال التافهة ولا مجرد الآمال العريضة والأماني الفارغة .

لقد أسكن النبي إبراهيم عليه السلام (١٩٨٥ – ٢١٤٠ ق. م) ذريته في الحجاز ، ولما شرع إبراهيم يبني الكعبة ، دعا ربّه قائلاً :

« **ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم إنك أنت العزيز الحكيم** » (البقرة : ١٣٩) .

ولقد كان إبراهيم عليه السلام نبياً ، وتقبل الله منه هذا الدعاء جملة وتفصيلا . ولكن كما يعرف الجميع فإن النبي العربي قد ظهر بعد ألفين وخمسمائة سنة ، أي خلال القرن السادس الميلادي ، وهذا خير دليل

---

(١) لاندري من اين للمؤلف الفاضل هذا التحديد (!!) المراجع !!

على أنّ الله لا يغير النظام الكونى ولا يحدث أمراً بالصدفة، بل إن من سنّته سبحانه أن يحول إرادته إلى الواقع خلال أوضاع سائرة سيراً طبيعياً ، وليس من خلال الطلاسم وخوارق العادات — فعلى الرغم من قبول الله دعاء إبراهيم فإن النبي العربى محمداً لم يظهر إلا عندما بلغت الأحوال فى سيرها مرحلة يتحتم فيها ظهوره كخاتم للنبيين عليهم الصلاة والسلام .

إن الإسلام يحتاج لكى يقوم بدوره من جديد إلى الالتزام بالحكمة الربانية ، وإلى الإيمان بالمستقبل الوضاء للإسلام ، لكى نبذر بذورنا فى الحال ، ونحن مؤهلون بسلاح الصبر الذى يشبه صبر غارس « الحور » ليصبح شجراً قائماً صلباً فى مدة مائة سنة .

إن هذا يتطلب منا رحابة صدر لتنشأ دعوتنا مثل الأزهار والرياحين للأصدقاء والخصوم ولكى تتوهج هذه الدعوة مثل الشمس المطلة على كل مرتفع ومنخفض.

هذا وقد تحقق دعاء نبى الله ابراهيم ، مع مراعاة جميع الحقائق الكونية والتاريخية ، فكيف نتوقع أن تكلل جهودنا بالنجاح المفاجىء بدون مراعاة الحقائق الموضوعية فى هذه الدنيا .. كلا فإن الظل لن يستقيم ما دام العود معوجاً ..

مستويات للمعرفة

إن نظام الأرض والسموات نظام عجيب تحار فيه العقول ، وإذا فكر فيه باحث فعلى أى شىء يحصل؟ إنه سيحصل على أرقام وإحصاءات عجيبة ؛ فإن قطر الأرض (٣٥ ألف ميل) وحجم الشمس يزيد اثنتى عشرة ألف مرة (١٢٠٠٠) عن الأرض . والمسافة بين الأرض والشمس ثلاثون مائة ألف ميل وتسعون مليوناً ، والأرض تدور على محورها بسرعة ألف ميل فى كل ساعة .

وهذه هى الأرقام التى يحصل عليها العلماء بدراسة الكون والعالم .

ولكن عندما ينظر المؤمن إلى هذا الكون فإن نظرته هذه تدله على الحقيقة العليا التى ترتفع فوق كل الأرقام وتنظم حركتها ، فقد ورد فى القرآن :

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد » (آل عمران : ١٩٠ — ١٩٤) :

لقد نظر العالم الطبيعى أو الفلكى إلى الكون ونظر المؤمن إلى الكون .

فأما العالم فقد نظر بنظرة علمية بيما نظر المؤمن بنظرة إيمانية .. إن هذا الفارق بين المشاهدتين يشكل السبب الحقيقى فى الفروق بين نتائج المشاهدة لكليهما فمن نظر إلى الكون بنظرة علمية بحتة فإنه لا يجد إلا أرقاماً وأعداداً تُعد وتحُصى ، ومن نظر إلى الكون بنظرة إيمانية فإن الله يتجلى له فى هذا الكون ، إنه يرى فى كل شىء آية من آيات الله ، وإنه يرى أن كل شىء يجرى فى الكون إنما يجرى بحكمة من الله وتقديره ، وإنه يرى وراء أستار هذا الكون (الجنة والجحيم) .. إنه ينال غذاء إيمانياً لروحه ، ويستكشف سرّ هذا الكون وهدفه فيقترب من الله ويزداد إيماناً به ..!!

ويتجلى لنا من هذا أن للمعرفة مستويين : مستوى ظاهرياً ومستوى باطنياً ، وأن الاختلاف بين هذين المستويين يوجد فى كل شىء ، وهذا ما يثبته لنا القرآن والسنة الصحيحة ، فعن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنما أنزل القرآن على سبعة أحرف لكل آية منها ظهر وبطن ولكلّ حد مطلّع) (سراج السنة) .

و(المطلع) هو موضع الاطلاع من المرتفع إلى المنحدر ، فإنك إذا قمت على أرض مستوية فلا ترى إلا ما كان قريباً منك ، أما إذا قمت على هضبة من الأرض فسترى ما يكون على مسافة بعيدة أيضاً .

ولذلك فهناك منهجان للاستفادة من القرآن أو مستويان للفهم القرآنى : مستوى المدلول الظاهرى الذى يستطيع أن يفهمه كل من يقرأ القرآن ؛ ومستوى المدلول الآخر العميق الذى لا يناله إلا من تفكر فيه وتدبره . فالمستوى المعرفى الظاهرى للقرآن هو أن نقف على معانى ظاهر الكلمات ونأخذ مدلولها ، ولا نعمل النظر فى معانيها العميقة .. وأما فهم القرآن على المستوى الداخلى فهو أن نصل بالبصيرة النفاذة إلى دلالات الآيات العميقة ولا نقتصر على السطور بل نقرأ ما يكمن بين السطور أيضاً .

ونأتى بمثالين فى هذا السياق ليتبيّن الأمر :

١ — لقد ورد فى القرآن قول الله تعالى : « **أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون** ». (البقرة : ٢٦٦) .

فقد تلا الخليفة الثانى عمر الفاروق — رضى الله عنه — هذه الآية فى جلسة وقال : إن هذه الآية أرقتنى طوال الليلة، ثم استوضح الناس وسأل عن مدلول هذه الآية ، فقال بعضُ الناس: إن هذه الآية تذكر حدائق الأعناب والنخيل ، وتذكر أنها نعمة من نعم الله وأن الله يعطيها من يشاء أو ينزل مصائب الإعصار والطوفان عليها متى يشاء — فكأن هذه الآيات لم تكن لها إلا هذه المعانى التى أدركها البسطاء السذج من الناس .

لكن عبد الله بن عباس الذى كان فى مطلع شبابه وقتذاك فقد قال : إن فى هذه الآية تمثيلاً للعمل الإنسانى . فسأل عمر — رضى الله عنه — وأى عمل ؟ . فقال : هذا مثال لشخص غنى آتاه الله ما لا ثم بعث سبحانه إليه شيطاناً لامتحانه ، فارتكب الآثام حتى أحبطت أعماله .. فقال عمر — رضى الله عنه : صدقت . ثم استطرد فى شرح الآية فقال: إنه قد عنى بها العمل ، لأن ابن آدم أفقر ما يكون إلى جنته إذا كبر سنه وكثرت عياله، وابن آدم أفقر ما يكون إلى عمله يوم القيامة .(تفسير ابن كثير) والذين كانوا ينظرون إلى تلك الآية بمنظار ظاهرى أدركوا المدلول الظاهرى لكلمة الجنة ، والذين نظروا إلى تلك الآية بمنظار باطنى اعتبروا الكلمة تمثيلا ، كأن مدلول الكلمة وفق التفسير الأول يتعلق بثمرات الدنيا ولكنه وفق التفسير الآخر أصبح المدلول ذريعة لتبيان حقيقة الآخرة العظمى.

٢ — ولما توفى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — اختلف الناس فى أمر الخلافة ، فمنهم من قال : إن الانتخاب يجب أن يكون فى جماعة المهاجرين ، وبعضهم كانوا يتحمسون للأنصار ، وكان الناس مختلفين حول مسألة بيعة الخليفة ، وهنا ننقل قطعة مما رواه ابن أبى شيبة عن ابن سيرين .. لقد روى هذا الاختلاف فقال :

« وأتى الناس عند أبى عبيدة بن الجراح فقال : تأتونى وفيكم ثانى اثنين » (كنز العمال : مجلد ٣ صفحة ١٤) ، وأبو عبيدة يريد من قوله أن يذكرهم أنه عندما هاجر النبى — صلى الله عليه وسلم — من مكة إلى المدينة كان الوفد المهاجر يشتمل على شخصين هما رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وصاحبه أبى بكر ، ولهذا جاء فى القرآن : (إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار » التوبة : ٤٠ .

والذين كانوا ينظرون إلى هذه الآية بالمستوى اللفظى لم يصلوا إلى حل مسألة الخلافة ، والذين كانوا ينظرون إلى الآية بمستوى الفهم الداخلى وصلوا إلى حل هذه المسألة حلا ناجعاً ووجدوا أن القرآن قد سبق ؛ فحل مسألة ترتيب الخلافة . فكلمة « ثانى اثنين » تدل على أن مكانة أبى بكر تأتى بعد رسول الله — صلى الله عليه وسلم .

والبحث الظاهرى للآية وقف عند واقعة غار ثور ، بينما البحث الداخلى الأعمق أرشدنا إلى طريق حل مباشر للمسألة التى نجمت عن وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى مسألة اختيار الخليفة وذلك عن طريق الفهم وفق المستوى الداخلى . . . وهو المستوى الأعمق ! ! فهناك إذن فقه بالدين وفهم للقرآن على المستوى الظاهرى ، وفيه يرى الإنسان ما يبدو ظاهراً ويعمل على غراره — ولكن هناك عمل وفهم آخر — فالفاهم الأول (الظاهرى) للقرآن كالسابح على سطح البحر ، أما الثانى فكالغواص على الدرر ..

إنه يصل إلى أغوار المفاهيم ، ويرى هذا الإنسان (الفاهم) الحقائق المستترة رأى العين ، إنه يرى الله فى حجب الغيب ، ولئن كان شأن هذا الإنسان مثل أى إنسان فى الظاهر فإنه يختلف عنه من الناحية النفسية فيختلف تخطيطه عن تخطيطه وتختلف رؤيته للأشياء عن رؤية الآخرين .

إن الإنسان الذى يقف علمه عند السطح الظاهرى لا يأخذ من الآيات إلا ديناً يمسّ جسمه ، ولا يصل إلى شغاف قلبه ، أما من قرأ ما بين السطور فسيأخذ نصيباً أوفر من المعانى حيث يكون ذلك غذاء ربانياً لروحه.

ولقد ورد فى القرآن قوله تعالى : « **ولباس التقوى ذلك خير** » (الأعراف : ٢٦) فالشخص العادى يفهم أن المراد من اللباس هو اللباس الجسمانى فيرى أنه من الواجب أن يكون اللباس مطابقاً لأوامر الإسلام ونواهيه ، ولكن عندما قرأ هذه الآية عروة بن الزبير علم أن اللباس هنا تمثيل وشرح « فلباس التقوى » يكون بخشية الله ، فكما أن الجسم الإنسانى يحتاج فى زينته إلى لباس ، فإن الروح تحتاج فى زينتها إلى تقوى الله وخشيته (تفسير ابن كثير) .

وكذلك الأمر فى الجانب الاجتماعى للدين .. فإن إقامة الدين فى المجتمع إما أن تكون باعتبار السطح الظاهرى أو باعتبار المستوى الباطنى ، فقد كان المسلمون يفكرون فى « الحديبية » فى العام السادس الهجرى أن الجهاد هو أن ينازلوا الكفار عسكرياً ، فإن موت العزّ خير من حياة الذل ، ولكنّ رسول الله ، وأبا بكر الصديق كانا يريان أنّ فتح الإسلام يتحقق بقبول جميع شروط الكفار وعقد مُعاهدة (اللاحرب) معهم ليتحسن الوضع ويستتب الأمر لحملة الدعوة — كان الناس يريدون حل هذه المسألة بالسيف المصلت .. وأما الذين أوتوا حكمة وبصيرة فقد اعتقدوا أن الحل يكمن فى الدعوة ، وهذا هو الميزان الذى لا يبارى فيه دين

الإسلام . وأضرب لكم مثلا آخر من سيرة الحسن والحسين رضى الله عنهما : لقد واجه كل منهما وضعاً مماثلا فى حياتهما — واجه الحسن رضى الله عنه مسألة معاوية ، بينما واجه الحسين مسألة يزيد بن معاوية — رأى الحسين رضى الله عنه بنظرة ظاهرة واعتبر المسألة مسألة حق وباطل فدافع عن الحق وحارب الباطل ، وبعكس ذلك نظر الحسن رضى الله عنه إلى المسألة بوجهة النظر العملية فرأى أنه من الحكمة أن يتحاشى النزاع والصدام ويتنازل عن الموقف ويزهد فى السياسة والحكم .

والتاريخ يشهد أن الحسين بن على رضى الله عنه دفن فى كربلاء ، وأنه ترك الباطل كما هو على وجه الأرض ، ونتج عن منهج الحسن بن على رضى الله عنه أن الإسلام قد بلغ أوج الاستقرار السياسى ، وتلاشى الخلاف والصراع ، وأخذ الإسلام يزحف من جديد إلى أصقاع العالم المختلفة — وبعد توقف الفتوحات — ومن ثم امتدت جيوش الدولة الأموية إلى نصف المعمورة تقريباً.

إن السياسة الرشيدة المنتصرة فى الشئون الاجتماعية تكمن فى الصبر والجلد ، وإن السياسة السطحية تكمن فى انعدام الصبر والعجلة وعدم التخطيط ، بحيث يبدو لبعض المسلمين وكأنهم يعيشون على الأرض وحدهم مع أنهم يعيشون — بالتأكيد — بين الأمم الأخرى على هذه الأرض التى تعتبر مكان امتحان ، وقد أتيحت لكل شخص وأمة فرصة العمل — على الأرض — سواء كانت هذه الأمة ظالمة أو عادلة ، فإذا أصيب المسلمون بسوء من شخص كان أو فئة وثارت ثائرتهم ونهضوا بدافع من الثأر والغضب واستعجلوا أمرهم فلن يكون نصيبهم إلا الخيبة والفشل.

ولكن إذا تحمل المسلمون السوء فى بداية الأمر ثم فكروا فى مختلف

جوانب القضية تفكراً يهديهم إلى جوانب ضعفهم وأسباب قوة الخصوم، ثم وصلوا إلى الحل الحقيقي للمعضلة بالعقل المنطقي السليم ، إذا فعلوا ذلك ملتزمين بالروية والصبر فسيكونون قد وصلوا إلى حقائق الحكمة المنسجمة مع سنن الكون .. والمصير المحتم هو النصر والتوفيق والتمكين فى الأرض .

إنّ عدم الصبر والاندفاع بدافع العواطف الهائجة يهوى بالإنسان إلى حضيض الأعمال الطائشة ، بينما يهدى الصبر إلى (صراط) التخطيط وحسن التصميم .. وفى دنيانا هذه يمنى العمل الطائش دائماً بالفشل .. بينما يكلل العمل المدروس المخطط له — دائماً — بالنجاح والبقاء .

منهجية الفكر

كانت الأرض الواقعة بين دجلة والفرات المسماة « مسوبوتاميا » فى التاريخ القديم (العراق حالياً) آهلة بذرية آدم الذين كانوا مسلمين آنذاك . ولكن عندما سرى فيهم الفساد بعث الله لهدايتهم رسوله سيدنا نوحاً عليه السلام ، ولكن القوم لم يرضوا بترك الفسوق والعصيان فحل بهم العذاب فى شكل طوفان ، فركب نوح مع شرذمة قليلة من أصحابه فى سفينة ، فنجت هذه السفينة ومن عليها من هذا الطوفان العظيم ، وغرق الباقون .

وقد ورد فى القرآن أن ابن نوح لم يتفق مع والده ولم يؤمن به ، فذهب فريسة الطوفان« **ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء . قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم** ») هود : ٤٣ (لقد كان نوح عليه السلام يرى الطوفان (من أمر الله) فركب السفينة ولكن ابنه رأى الطوفان أمراً (مناخياً) وظاهرة من ظواهر الطبيعة فهرع إلى الجبل . فكان الفيصل بين النظرتين جوهرياً فنجى أحدهما بروحه .. وأما الآخر فابتلعته أمواج الطوفان حين آمن بالظاهرة الطبيعية وكفر (بأمر الله) .

إنك إن آمنت بأن طوفاناً قد جاء بأمر من الله فسوف تسعى إلى مرضاة الله وتتولد فى نفسك كيفية التضرع وحالة الخشية « **فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون** » (الأنعام : ٤٣) .

وأما إذا اعتبرته حادثة من الحوادث التى تطرأ آناء الليل وآناء النهار بحكم ظروف الطبيعة فسوف تنمو فى نفسك الغفلة والمعصية كما كانت فى نفس ابن نوح عليه السلام .

والمسلمون يواجهون فى هذا الزمان بعديد من الأعاصير وأنواع من الطوفان . فقد هيمنتْ عليهم الشعوبُ الكافرة والقوى اللادينية سواء كانوا - فى أوطانهم - أغلبية أم أقلية .. فهنا أو هناك تصبُّ الأممُ الكافرة الحاقدة جام غضبها عليهم ، وبالتالى فهم يعانون فى كل مكان أنواع العذاب والشقاء .. وأحياناً تنفذ تلك الأمم المعادية إرادتها الناقمة على المسلمين عن طريق استغلال فئة منهم وجعلها عميلة لها . وفى حال بائس كهذا كان على المسلمين أن يتذكروا وعد الله أكثر من مرة فى القرآن الكريم بأنه مع المؤمنين : « **ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وإن الله مع المؤمنين** » (الأنفال : ١٩) . وبأنه سيدافع عن المؤمنين الصادقين : « **إن الله يدافع عن الذين آمنوا** » (الحج : ٣٨) .

وبأنه لن يسمح بهيمنة الكافرين على المؤمنين الصادقين : « **ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا** » (النساء : ١٤١) .

وفى ضوء هذه الآيات التى يجب أن نعيها نحن المسلمين فإن علينا أن نعتقد أن ما يتنزل من البلايا والنوائب إنما هو تنبيه من الله ، وأنه فى حقيقته أمر من أمور الله وليس من الأمور البشرية العادية أو الظواهر الطبيعية .. والسؤال الواجب هنا :

كيف يرى المسلمون اليوم هذه النوائب والخطوب المحيطة بهم ؟

إن المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يتحدثون علناً ويطنبون فى أحاديثهم بأن هذه الأمور كلها إنما هى دسائس ضد المسلمين تقوم بها القوى المعادية للإسلام .

إن أقلامنا وألسنتنا لا تألو وسعاً ولا تدخر جهداً فى إثبات هذا الأمر الوحيد ، وقلما يوجد من يرى فى هذه المصائب أنها من أمر الله ،

بل ذهب بعض الناس ليكتشفوا يد « البيت الأبيض » وذهب غيرهم ليكتشف يد « البيت الأحمر » ، فمنهم من يتهم قوماً مشركين ، ومنهم من يلوم جماعة أخرى من الكافرين . وهذه — فى الحق — ضلالة ما بعدها ضلالة — وهذه هى الفكرة التى أضلت الجماعات الإسلامية فى هذا الزمان حيث إنهم اعتبروا (أمراً إلهياً) يؤدبهم الله به — مجرد حدث من الأحداث الإنسانية العادية ...

فالتاريخ يعيد نفسه ، لأن الخطيئة التى اقترفها ابن نوح عليه السلام فى قصة الطوفان يقترفها المسلمون فى هذا الزمان .

ولو أن المسلمين اعتبروا من هذا الوضع القاسى المرير الذى يعيشونه على امتداد الدنيا بأجمعها أمراً إلهياً لرجعوا إلى الله وأنابوا ونشأت فيهم فكرة إصلاح النفس وتزكية القلب وتنمية العقل . وأصبحت همتهم موجهة إلى إصلاح تعاملهم مع الله على ضوء منهج الإسلام .. ولكنهم اعتبروه تآمراً إنسانياً ودسيسة من الدسائس ، فبالتالى ثارت ثائرتهم وجن جنونهم وانتشرت نقمة عارمة بين مجتمعاتهم ضد الأمم الأخرى .

والإنسان المسلم يؤمن بأن الله قادر قدرة مطلقة فإذا حسب أن النكبة التى ألمت به إنما هى من عند الله فسوف تنمو فيه نفسية التضرع والابتهال إلى الله وتغيير نفسه من الداخل .

ولكن الإنسان إذا تأكد أن النكبة هى من تلقاء إنسان آخر فسوف تتولد فيه عوامل الثأر والحقد والنقمة ، وهذه حالة المسلمين فى العالم برمته فقد أصبحوا مغيظين حانقين ناقمين على الذين يصنعون بهم المؤامرات .

وجدير بالذكر أن لجميع حاملى الكتب السماوية قانوناً إلهياً خاصاً موجزه أن الفساد عندما يسرى فى مجتماتهم فإن الله ينزل عليهم المصائب

والعقوبات العاجلة لينتبهوا ويصلحوا ما بأنفسهم ؛ فاليهود الذين حملوا دينا قديما نالوا عقوبات شديدة فى تاريخهم بما كسبت أيديهم من ضلال وفساد أسهب « الكتاب المقدس » فى ذكرها ، فقد حفلت التوراة بذكر العقوبات التى حدثت قبل ميلاد المسيح عليه السلام فى الزبور وأشعياء وأرميا وبابل ، والعقوبات التى نزلت بعد الميلاد ذكرت فى أناجيل متى ولوقا ، فمثلا يأتى ذكر الفساد فى اليهود فى الكتاب على النحو التالى :

فاشتد قهر الله على عياله فأدان ميراثه (إسرائيل) ونقم نقمة شديدة فألقى بنى إسرائيل تحت هيمنة الأمم الأخرى وحكم فيهم أعداءهم . (الزبور الباب ١٠٦) .

وإن المقت الذى تعرض له اليهود جاء ذكره فى القرآن :

« وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً . فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً ، إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيراً ، عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » (الإسراء : ٤ — ٨) .

ويظهر مما أسلفنا أن هذه العقوبات الإلهية أجريت على اليهود بأيدى الناس ، فمثلا قطع دابر الحكومة الإسرائيلية بغلبة سامرية فى ٧٣١ قبل ميلاد المسيح فقد أعمل السيف فى رقاب اليهود فقتل عشرات الآلاف منهم ومن ثم أجلى اليهود من معظم بقاع فلسطين وحلت مكانهم أمم أخرى واستوطنت هذه الأراضى . ولم ينزل الله الملائكة على الأرض لمعاقبة اليهود

بل كان ذلك الحاكم الأشورى سارغون الثانى « Sargon » هو الذى نفذ هذه العقوبة الإلهية على اليهود ، وفى عام ٥٨٦ قبل ميلاد المسيح عندما قتل اليهود فى القدس وذاقوا الاستعباد والذل والهوان وأحرق البيت المقدس فإن ذلك أيضاً لم يكن بالإمدادات السماوية بل كان على يد ملك بابل « بختنصر » ، ثم كان الهجوم على البيت المقدس فى عام ١٦٨ قبل الميلاد مما جعل اليهود مستعبدين أذلاء مرة أخرى وأحرقت صحفهم السماوية . وفى هذه المرة أيضاً لم تكن العقوبة بيد الوسائل غير العادية ولكن ذلك كان بواسطة ملك الشام (انطيوخس الرابع) « Antiochus » الذى صب جام غضبه على اليهود ، ثم دخل المحتلون الأجانب فلسطين مرة أخرى فى عام ٦٣ قبل ميلاد المسيح ، فتوغلوا فى البيت المقدس وأخضعوا اليهود . وبديهى أن الذى فعل ذلك لم يكن مخلوقاً سماوياً بل كان فاتحاً رومياً يدعى (بومبى Bompey) ثم شنت غارة شعواء على بيت المقدس فى عام ٧٠م ودمر هيكل سليمان وتحولت المدينة المقدسة إلى أنقاض وبلغ عدد الضحايا من اليهود نحو مائة وخمسين ألفاً ، وجعل الباقون عبيداً مستضعفين .. وفى هذه المرة أيضاً لم يظهر الملائكة بل حقق الله العقوبة بواسطة الملك الرومى (تيتس Titus) .

وقد اعتاد اليهود فى تاريخهم نسبة هذه الأحداث إلى الأعداء ولم يكونوا يحسبون أن ذلك من عند الله ، لأن الشخصية البشرية الظاهرة كانت حجاباً أكبر ، ولكن القرآن والإنجيل يصدقان على أن تلك العقوبات كانت من عند الله ولو كانت الأيدى الإنسانية هى التى تعمل فى الظاهر ، ولو أدرك اليهود أن جميع هذه العقوبات هى من عند الله لنشأت فيهم روح العبادة والتوبة ، ولكنهم رأوا أن هذه الاضطهادات إنما هى نتيجة الدسائس والمؤامرات فتولدت فيهم روح الغفلة ونفسية التمرد .. والحقيقة أن الله

لا يبعث عقوباته بالملائكة بل تنفذ تلك العقوبات بواسطة البشر لكى تسترخى سدول الإمتحان على وجه الحقيقة ، ولكى ينتبه العقلاء ويصلحوا شئونهم ، وأما الذين غرقوا فى ظلام الغفلة والجهل فلن يزدادوا إلا ظلماً وعدواناً .

ودار التاريخ.. وظهر المسلمون ، وأصبحوا — أيضاً — فى عصرنا الحديث — يوجهون التهم واللوم إلى غيرهم فبذلك نشأت فيهم فكرة سلبية لا تمت بصلة إلى الحقيقة ولم تتولد فيهم عقلية تقوم عليها جهود مجدية صالحة.

ولأن المسلمين اعتادوا أن يروا الأوضاع من جهة أنها (مؤامرة) فقد أصبحوا لا يرون خطأهم فى أمر من الأمور وأخذوا يوجهون اللوم والتهمة إلى الآخرين ونتج عن ذلك أن فكرتهم الدينية أصبحت موجهة إلى السياسة — فقط — غير أن الفكرة الدينية فى الواقع يجب أن تكون موجهة إلى الآخرة — أولا — وبالتالى أصبح المسلمون أمة خالية من الشخصية ، إذ أن الشخصية تتولد من الشعور بالمسئولية ، وقد أصبح الشأن فى المسلمين أنهم لا يعرفون أية مسئولية ولا يدركون أى واجب .. وحسبهم فقط أن يطالبوا بالحقوق .

ونتيجة لذلك فقد أصبح منهج المسلمين فى هذا الزمان منهجاً (قومياً) بدلا من أن يكون منهجاً نابعاً من (المبدأ) وحده ، لأن الشعب الذى يعتبر الآخرين خصوماً له يغدو منهجه (قومياً) وإن هذا الوضع قد يفضى إلى الاقتتال والتخاصم بين المسلمين لأن المسلمين عندما لا يقدرون على منازلة شعوب أخرى عسكرياً فإنهم يتخاصمون فيما بينهم إطفاء لنار العداوة فى قلوبهم وإرواء لنزعة الصراع المتأججة فى صدورهم.

وإن الخسارة الفادحة التى تنتج عن هذه الفكرة الخاطئة هى أن المسلمين تخلوا عن فكرة (الدعوة) التى هى مقصد وجودهم وغاية إخراجهم إلى حيز الوجود ، فالمسلم الذى يدعو الناس إلى دين الرحمة والهداية ، يحترق قلبه ويتفجر شفقة ورحمة بهم ، ولكن لما اصطلح المسلمون على فكرة المؤامرات والدسائس ، تكونت فيهم نفسية موجهة ضد الآخرين ، إنها نفسية الكراهية والحقد وأخذ الثأر ، فإذا كان هذا حالهم ، فكيف يمكن لهم أن يقوموا بعمل الدعوة بإخلاص وجدية .. أجل كيف يمكن للقلب الحاقد نشر الحب وللعقل المظلم نشر النور ؟!!

الوعي الفكري الصحيح

لقد ورد في القرآن الكريم « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون» (الأعراف : ٩٦).

وقد ورد نفس المعنى في اليهود فقال : « ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم» (المائدة : ٦٦).

فلماذا هذه الخيرات والبركات والنعم لمجرد الإيمان بالوحي ؟ ..

بعض الناس يحسب أن هناك طلاسم سحرية تكمن في كلمة الإيمان ، وتفتح أبواب الكنوز بمجرد حركة اللسان كما كان باب الكنز يفتح بكلمة (افتح يا سمسم) في الأسطورة المروية عن سالف العصر والأوان .

ولكن هذه الفكرة لا تشوبها شائبة من الحقيقة فلو كانت هذه البركات تتوقف على حركة اللسان فإن المسلمين يلهجون بكلمة الإيمان اليوم أكثر بكثير من قديم الزمان لأن اللاهجين بكلمة الإيمان يشارف عددهم مئات الملايين في العالم ، ولكننا نعرف أن المسلمين رغم هذه الكثرة الكاثرة والأغلبية الساحقة لا يجدون سبيلا إلى بركات السماء ولا إلى بركات الأرض.

والحقيقة أن الأمر ليس بهين وليس كما يفهمه الناس ، فإن كلمة الإيمان في هذه الآيات ترادف الثورة الفكرية ، والذين آمنوا بمحمد — صلى الله عليه وسلم — من القرون الأولى كانوا يعرفون أن الإيمان في الواقع إرادة فكرية وعزم صميم مصدره الشعور ، ويمكن إدراك هذه

الحقيقة بسهولة إذا ما رأينا المدارك العملية للإيمان بالنسبة لليهود أو العرب المشركين .

ونحن الآن عندما نذكر اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم نتذكر ذلك الرجل العظيم الذى أحيطت به هالة العظمة فى التاريخ الذى يمتد إلى أربعمائة وألف سنة ؛ ولكن ذلك الرجل لم يكن إلا « محمد بن عبد الله » إبان بعثته .. فإن تاريخه المجيد لم يكن قد ظهر بعد آنذاك ، بل كان مستوراً وراء حجب المستقبل ، وكان الناس ينظرون إليه كشخص عادى . أما اليهود والمشركون فكانوا يعتزون بدين صلب عوده واستقر مكانه . لقد كان اليهود يعتنقون ديناً يتألق تاريخه بأسماء الرسل مثل موسى وداود وسليمان عليهم السلام . وقد انغرست هذه الأسماء فى أعماق الأذهان منذ فترة طويلة من التاريخ . وكذلك كان حال المشركين فقد كانوا ينسبون أنفسهم إلى إبراهيم وإسماعيل وبالتالى كانوا يعتبرون أنفسهم وارثى الكعبة ودين إبراهيم الحنيف ؛ وهذه اعتبارات كان لها وزن وأثر وقد بلغت من الأهمية مكاناً كبيراً .. ومجمل القول إن نبى الإسلام كان يقف فى بداية انطلاقة تاريخية فى حين أن اليهود والعرب كانوا يقفون فى ضوء شعاع التاريخ الوهاج .

وبناء على هذه الحقيقة فلم يكن الإيمان برسول الإسلام الذى ولد قبل أربعة عشر قرناً والوقوف إلى جانبه أمراً بسيطاً وميسوراً ، بل كان خروجاً عن دين استقرت دعائمه ، ودخولا فى دين لا يعبأ به أحد ، وليس له تاريخ مجيد مشرق القسمات والملامح . لقد كان الأمر تخلياً عن صداقة تتذرع بالمصالح وتتلفع بردائها إلى صداقة لا علاقة لها بالمصالح والمنافع ، وكان الأمر فى الحقيقة — أيضاً — ارتفاعاً عن الأمجاد الرخيصة المادية إلى

أمجاد العظمة غير المادية . وتطلعاً للمستقبل المرتقب الذى يتسامى فيه الإنسان عن الآلهة الملموسة إلى الإيمان برب غير ملموس .

لقد كانت هذه الخطوة مغامرة كبيرة ، ومثل هذا الحادث لا يحدث فى حياة الإنسان ، وكأنه خروج من غرفة ودخول لغرفة أخرى ، بل يحدث أشبه بالزلزلة ، وأقرب إلى الانقلاب فى التفكير ، فينبذ الإنسان شيئاً بإرادته ويمسك شيئاً آخر بإرادته أيضاً ، وتتحرك فيه إرادته وتستجاش كوامنه وتتموج سواكنه ، ليمشى فى طريقه لعبور جسر من التضحيات بكل غال ورخيص ، وللوصول إلى طريق آخر بنجاح يهتز فيه كيان الإنسان كما تهتز الشجرة التى تحركها موجات من الأعاصير ..

فإذا ما اختارت مجموعة بشرية فكرة أو دعوة على هذا النحو الانقلابى فسوف ينبثق — من جراء هذا — إلى حيز الوجـ د وعلى سطح الأرض شعب جديد فى أخلاقه وسلوكه وحركته .. يختلف عن أبناء جنسه الآخرين ومن هؤلاء الأفراد يتكون مجتمع جديد غير مسبوق النظير ، يكون مؤهلا ليأتى بالعجائب وليصنع المعجزات على وجه الأرض .

عندما نادى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — العرب إلى الإسلام كانت الأديان الأخرى موجودة ومتأصلة فى المجتمع وكانت المصالح مربوطة بها ومعتمدة عليها ، ولكن الإسلام لم يكن فى ذلك الوقت إلا مجرد فكرة أو دعوة لم تترجم إلى الواقع بينما كانت الأديان الأخرى — كما ألمحنا — مراكز منظمة راسخة الجذور ، وفى مثل هذه الحال فإن الالتزام بالإسلام يعنى التضحية بكل شىء والتنازل عن كل مصلحة فى ذلك المجتمع المحارب للفكرة .. هذا بينما كانت المصالح مصونة ومضمونة بالانتماء إلى أديان أخرى حيث يكون معتنقها شخصاً محترماً فى المجتمع ، لكن هذا (المحترم)

ما إن يتخذ الإسلام عقيدته ومنهجه حتى يصبح شخصاً غير محترم لأن دينه لم يكن قوى ساعده ولم يصلب عوده ، بل هو دين يحرمه من المنافع الذاتية والقومية . . وفى هذه الظروف كان اعتناق الإسلام يحتاج إلى عزم أكيد وقرار حازم جرىء ، ولهذا كان الذين اعتنقوا هذا الدين فى هذه المرحلة إنما اعتنقوه بسبب هزة شديدة حدثت فى أغوار نفوسهم ، فكان هذا الاعتناق انتفاضة فكرية بالنسبة لهم ، إذ بدأوا يفكرون فى إعادة النظر فى معتقداتهم القديمة المتوارثة .. حينئذ اتخذوا القرار وعقدوا النية ، فنبذوا تلك المعتقدات الجاهلية وراء ظهورهم وعزموا على ألا يرجعوا إليها مهما كانت الظروف ، واختاروا ديناً عضوا عليه بالنواجذ .

وبهذا العمل مزقوا ستار العصبية وغضوا النظر عن المصالح ، وأهملوا المنافع المادية الرعناء ، وخاطروا بأنفسهم ، وأصبحوا منعزلين عن عشائرهم وقبائلهم وأسرهم ومجتمعهم .. ثم هاجروا من أرض التقليد الميت عن وعى واستوطنوا — عن إرادة — أرض العقيدة الحية .. أجل : كان الإسلام بالنسبة للمسلمين فى العهد الأول انقلاباً فكرياً ؛ لذلك فقد ولد هذا الانقلاب مجموعة بشرية انقلابية ، بينما أصبح الإسلام بالنسبة لمعظم مسلمى اليوم عقيدة ميتة لا حراك فيها ، وصار الأفراد الذين ينتمون إلى هذا الإسلام يكونون مجموعة بشرية خاملة كالجثة الهامدة فليس فكرهم حياً ولا عملهم منتجاً .

لقد جاء فى الحديث (بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء) فإذا أمعنا النظر فى هذا الحديث فسنرى أن التاريخ قد عاد القهقرى إلى ظروف ميلاد الإسلام الأولى ، فالبون شاسع فى عصرنا بين الدين المحفوظ فى القرآن والدين المتبع بين مسلمى هذا الزمان ، فلذا سمى أولهما :

(الدين الكتابي) وآخرهما : الدين الاجتماعي ، وإن الدين الحقيقي لنلمسه فقط في الكتاب والسنة ... لقد أصبح هذا الدين غريباً كما كان ، فعاد كما بدأ ، بينما أضحى الدين الموجود والمنظور في المجتمعات والبيئات المعاصرة مجرد هيئة منظمة اجتماعية ، كما كانت الأديان الأخرى إبان البعثة .

ونحن نرى أن الحركات الإسلامية القوية في هذا العصر تخلد إلى أرض هذا الإسلام المنظور الملموس ، ولو أنها تتباين وتختلف في شعاراتها وهتافاتها بين المطالبة بإسلام جزئي أو إسلام كلي .. ورغم هذا الاختلاف في المطالب فإن جميع هذه الحركات نشأت ونمت على سطح الدين الاجتماعي الموجود وليس على سطح الدين الكتابي الحقيقي ، فأصبح إسلام اليوم مطية وسنداً للوصول إلى القيادة والسيادة ، أصبح محلا تجارياً لجلب المنافع ، وسوقاً من الأسواق يمكن بها استدرار الأموال والحصول على ما لا يمكن إحرازه من الأسواق الدنيوية العامة .

إنه يمكن بالإسلام استجاشة العواطف والحصول على التبرعات ، وملء صناديق النذور . كما يمكن بالإسلام حشد جمع غفير من الناس والإدلاء بالكلمات الرنانة بين أيديهم .. والغريب أن اليهود كانوا على نفس المنهج الذي نرى المسلمين الآن سائرين عليه في كل مكان .

ومن جانب آخر نشاهد الدين الحقيقي قد أصبح مغلفاً بين دفتي الكتاب ولا وجود له إلا باعتباره صورة فكرية ومجرد خيال .. لقد أصبح الدين غريباً بين أتباعه والمتحمسين له .

وفي مثل هذا الواقع القاسي المرير عندما يعتنق شخص مسلم الدين الإسلامي الحقيقي يعتنقه على حساب شعبيته ومكانته في المجتمع فيحسبه الناس مبتدعاً ديناً جديداً ، فلا توجه إليه الدعوة في المؤتمرات الدينية ،

ولا يرجى منه أن يتفضل مشكوراً لإلقاء كلمته فى (الاحتفال القرآنى) ولو كان قد أمضى عمره فى دراسة القرآن والتأمل فيه ، ولن يقدم له منصب « شيخ الحديث » فى معهد من المعاهد الدينية ، حتى ولو كان هو شخص البخارى ومسلم أو كان قد أمضى عمره فى دراسة كتب الحديث وعلوم السنة ، ولن يعد من صفوة العلماء الربانيين حتى لو كان فى مكانة رفيعة من الورع والتقوى ، ولن يعتبر أهلا للقب دينى حتى لو كرس حياته للإسلام وخدمته .

ومرد ذلك أن ذلك الشخص يكون ثابتاً على دين الكتاب والسنة ، وناقماً على الدين الاجتماعى الموجود فى كل مكان .. ذلك فى عصر أصبح فيه دين الكتاب والسنة غريباً بين أتباع الدين الاجتماعى التقليدى ، أعنى هذا الشىء الذى يحسبه الناس ديناً بينما هو مجرد مظاهر وصور وليست من الحقيقة الربانية العميقة فى شىء .. إن هذا الدين مأخوذ من التقاليد والعادات وليس نابعاً من مصدرى الوحى (الكتاب والسنة) .

الضربة القاضية

« لعبة كيرم » تعد من الألعاب المنزلية المعروفة وتلعب على لوحة خشبية يرتب فى وسطها تسعة عشر قرصاً يشبه فى حجمه عملة القرش أو الروبية ، والمبادر فى هذه اللعبة يضرب بالقرص الضارب من زاوية اللوحة على جميع الأقراص . ولئن كانت هذه الضربة تقع على نقطة واحدة لكنها إذا كانت ناجحة تسمى (عمل الأستاذ) أو ضربة « المعلم » ، وحرك كل قرص من مكانه ليدخل الشبكة ..

والحق أن عملية إحياء الدين الحقيقى تحتاج إلى مثل هذا العمل الأستاذى أو إلى « ضربة المعلم » حتى يحرك هذا العمل الكبير (ضربة المعلم) كل

شخص من مكانه ويثير فكره ويلهب عقله فيتمكن من أن يكون مؤهلا للتفاعل مع الدين الحقيقى الموجود بين دفتى الكتاب والسنة الشريفة .

ولقد كان هذا هو نفس الأمر الذى وقع فى فترة بعثة النبى صلى الله عليه وسلم — وإن إعادة هذا الواقع إنما هو التجديد الحقيقى للدين فى هذا الزمان ، وليست حقيقة تجديد الدين إلا إعادة عمل النبوة ؛ فقد كان النبى قد أحيا فى عهده دين الله مقابل هيكل جامد للأديان الأخرى ، ويحتاج دين الله فى هذا الزمان إلى شخص يهضمه روحاً وقلباً ويتمثله حياة مقابل هيكل قائم للإسلام راج بين المسلمين وبدون إكمال هذا العمل لا يتوقع أن يتكسر جمود الناس فى الدين وأن يتحول الناس عن شخصيات وهيئات ومراكز إلى دين الله مباشرة ليفهموا أن الأمور الأساسية هى الدين ويبنوا دينهم على أساس الحقائق بدلا من أن يعتمدوا على الكرامات والطلاسم ليذوقوا لذه الدين الحى الفعال وليهجروا الأعمال الخاوية من الروح .. وليدخل الإسلام فى أعماقهم كقوة محركة ولا يكون كذيل أو « خاتم ماسى » فى اليد لا عمل له فى حياه الإنسان ، وليتذوقوا حقيقة التقوى بدلا من أن يعتبروا بعض الأعمال الصناعية ديناً ؛ وفى هذا الإيمان الصحيح يكمن حل أكبر معضلة تواجه المسلمين فى الوقت الحاضر ، وهى المعضلة التى جعلت الإسلام يبدو جزءاً من حركات قومية يقوم بها المسلمون لأغراض مادية من أغراض الدنيا حتى أصبحوا فريسة الأمم والشعوب الأخرى .

ولقد كان من الطبيعى أن ينظر المسلمون الخاضعون للمنطلق القومى إلى الشعوب والأمم نظرة الازدراء والحقد والكراهية . وبالتالى تولدت من جراء ذلك نفسية قوامها الصراع والنزال والأنانية وأصبح المسلمون لا يطربهم إلا ما يروج عن بطولاتهم الحربية أو العسكرية فى التاريخ ،

فتألق بذلك « التفسير العسكرى » للإسلام والحديث عن مميزات النبوة بمصطلحات الحكم والسياسة وإشعال نار الفوضى والشغب ضد الأمم الأخرى فضلا عن اعتبار هذه الأمم عدوة ظالمة مغتصبة والإعجاب بأساليب الحرب والنضال بدلا من المسالمة والتروى ما أمكن . وقد بلغ ذلك حداً بدأ الناس معه ينظرون إلى كل نداء يدعو إلى الآخرة والدعوة إلى البناء الهادئ بهدوء وصمت وروية على أنه مؤامرة وشاغل عن الثغور ، والجبهات أمام أعداء الإسلام ، ومثبط للهمم ومخدر للقوة وداع إلى تفاهة الأمور التى لا أهمية لها ولا أولوية . ولو أقيم الدين الحقيقى على أساس من الحقائق الأبدية وفصل عن هيكل الإسلام الصناعى التقليدى فستهوى هذه الأفكار وتسقط على الأرض .

إن التعبيرات القومية والوطنية للإسلام تعجب الشخص إذا كان فكره منطلقاً من الوضعية القومية ، ولكن إذا بدأ الإنسان يعيش فى إطار تعاليم الإسلام فستتلاشى جاذبية هذه التأثيرات القومية ..

إننا أحوج ما نكون إلى هذا الوعى الفكرى أو الثورة فى التفكير ، إن نقطة الانطلاق الوحيدة لأى عمل حقيقى هى التوعية الصحيحة وهى الإقامة الحقيقية لأفراد هذه الملة الإسلامية على أرض الإسلام الحقيقى المنزل فى الكتاب والسنة ، وهى – فى الوقت نفسه – تصحيح لمسار ذلك الاتجاه الذى يجعل الإسلام أشبه بالمذهب الاجتماعى التقليدى .

وعندما يبلغ هذا العمل حداً ملموساً نحو الغاية المنشودة فسيحدث فى المسلمين شعور ربانى وسلوك إلهى .. وقبل الوصول إلى هذا المقصود الأول يكون اقتحام المخاطر والقيام بعمل كبير مزازل لا يمكن إلا لإنسان سُلب لبه وضاع عقله وخلا من الإخلاص .

والحقيقة .. أن جميع الأهداف التى نتمنى تحقيقها إنما هى النتائج والمحصلات الثانوية لهذا التغيير الفكرى ، وإن كافة النتائج التى نترقبها ونحن إليها سوف تنبثق من بطن هذا الانقلاب الفكرى الذى سيتمكن — بإذن الله — من تحطيم أغلال مئات الأوهام التى أحاطت بحياتنا فينتج من ذلك أن يزداد النشاط العلمى ويمنح هذا التغيير جرأة وقوة معنوية للأفراد فيقومون بالمهام التاريخية والأعمال المختارة فى مجالات شتى ، وقد ينشئ هذا الانقلاب سعة أفق وامتداد طموح فى الناس فيخطون خطوات لا يخطوها غيرهم ، ويستثير هذا التغيير الوعى الربانى فى الأشخاص ، فيتمكنون من القيام بتخطيط يفوق كل تقدير ، وبالتالى فلا يمكن لألد الأعداء أن يخترق هذا التخطيط أو يقضى عليه ، ولسوف ينجح هذا التغيير فى تسخير الشعوب والجاليات والمجتمعات تسخيراً حسناً فيصبح لأصحاب هذا التغيير مواقفهم المجيدة على وجه الأرض.

ومجمل القول عندما يتحقق هذا التغيير فستنفجر ينابيع الرزق من الأرض وتنهمر أمطار الفضل ، ويكتب الله لهذه الأمة السيادة فى الدنيا كما يكتب لها الفوز فى الآخرة والخلود فى الجنة .

حكمة تتابع الشرائع :

إن مقاومة الجمود الدينى مطلب أساسى يطالبنا به الله تعالى .. وهذا هو سبب تتابع الشرائع واختلافها فى التفاصيل لدى جميع الرسل . لقد كان الهدف هو تجاوز الجمود الدينى ، وقد نص على ذلك القرآن حيث يقول : « **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فى ما آتاكم فاستبقوا الخيرات** »(المائدة : ٤٨) . وقال تعالى : « **لكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك فى الأمر وادع إلى ربك إنك لعلى هدى مستقيم** » (الحج : ٦٧) . .

وهذا هو الهدف الذى من أجله جاء الأمر بتحويل القبلة : « ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات » (البقرة : ١٤٨) .

وبوضوح أكثر : « وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » (البقرة : ١٤٣) .

وقد اصطلح بعض العلماء على استعمال مصطلح (التدرج) لتوضيح الفروق بين الشرائع ، وهم يريدون بذلك أن شريعة الله سارت على دروب الرقى متدرجة من البساطة نحو الكمال .. وهذا هو السبب — فى رأيهم — او جودفروق فى التفاصيل بين الشرائع ،مع أنه فى الحقيقة لا أساس لهذا التفسير ، وقد أبان القرآن بوضوح أن سبب تغيير الشرائع إنما هو «الابتلاء» وليس « الارتقاء » فإن الشكل الظاهرى للشريعة إنما يعنى الإظهار الحى للعقائد الدينية ، ولكن الشريعة ربما تفقد روحها وحيويتها بمرور العصور فتتحول إلى هيكل جامد انفصلت عنه الآصرة الروحية والنفسية والإنسانية ، ولهذا فإن الله سبحانه ينسخ الهيكل القديم للشريعة ، ذلك الذى آل مرة إلى عما تقليدى جاف ويغيره حتى يتجدد به الإيمان وتتقوى به روح الدين و الناس — بالتالى — شريعة جديدة بوعى جديد وتصميم جديد .

وفى تلك المرحلة الدقيقة الحاسمة يتضح الفرق بين من ' وشعور . ومن يعبد الله جرياً على العادة والتقليد الجامد .

إن تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة مثال نص القرآن على حكمة هذا التغيير « لنعلم من على عقبيه » (البقرة من الآية ١٤٣) . والحق بين من يتبع الحق ومن يتبع المراسم وا المراسم والتقاليد يظل خاضعاً لعصبيته ذلك المنهج التقليدى ، ويصحح مسار

و

م

الدعوة الإسلامية

عندما يأتى موسم المطر وتهب الرياح الباردة ، وتتبلد السماء بالغيوم يعلن ملك من ملائكة الله تعالى أن الذى يبذر بذوره فى الأرض فسوف يهيىء الله له نظام الكون لتعود بذوره بفائدة مقدارها سبعمائة ضعف .

وهكذا حال الدين فى هذا العصر ، فإن الله جمع جميع الأسباب لدعم الدين وغلبته فبعد مرور قرون متتالية من الزمان ، ظل الأساس الذى تقرر منذ مئات السنين يلائم الدين ويؤيده حتى يقوم عباد الله من المؤمنين لتحقيق الإمكانات التى وفرها الله لهم ويكرسوا جهودهم لهذا الهدف النبيل . أجل إن الذين يكرسون حياتهم لتحقيق هذه المهمة فسوف يعطيهم الله أجراً عظيما فى الآخرة يعادل أكثر من سبعمائة ضعف أو أكثر وينعم عليهم فى هذه الدنيا أيضاً بالقوة والتمكين فى الأرض .

لقد اجتاز العالم الإسلامى مرحلتين وهو على عتبة باب المرحلة الثالثة ، فليت شعرى من هم الذين سيسجل التاريخ أسماءهم بمداد من نور . . فتلك بدون شك أكبر مهمة على وجه الأرض . فليتنافس فى ذلك المتنافسون وليضحوا فى سبيل ذلك بأرواحهم وأموالهم .

ما هو الإسلام ؟

يكمن سر الإسلام فى كلمة التوحيد ' فكما أن الشجرة ليست إلا بذرة صغيرة فإن الإسلام أيضاً حقيقة التوحيد وما بقى منه إنما هو مظاهر التوحيد أو متطلباته. والتوحيد فى الظاهر هو أن الله (واحد) وليس أكثر ، لكن التوحيد فى الحقيقة ليس مسألة تنتمى إلى باب العدد والحساب ، انما هو بالنسبة للإنسان إثبات ذات الله تعالى على حساب نفى ذاته ، رفة ربه ومعرفة نفسه والإيمان بأن الله قادر مطلق ؛ والعبد بالنسبة لله

عاجز مطلق ، وعندما يعرف الإنسان حقيقة هذه العلاقة بالله تبارك وتعالى فسوف يدرك حقيقة التوحيد ، فالتوحيد والإيمان بالله إرادة واعية من الإنسان ، تعنى الاستسلام أمام الحق ، مع القدرة على الإدراك ، وإن الإيمان هو الاعتراف بالحقيقة والاعتراف بالذى يوحيه الوحى وهو أكبر بر وحسنة فى هذه الدنيا .

هذا هو التوحيد الذى يدين الكون له بجملته .. إن الأرض والشمس منقادتان لله تعالى على وجه كامل تام ، ولا تحيد النحلة عن الطريق التى وضعها الله لها ، ولكن الأرض والشمس أو النحلة كل منها لا تعمل ولا تؤدى واجباتها بأمر من شعورها وإرادتها بل إنها جبلت فطرة على هذا الأمر أو سيرت مجبرة على هذا الطريق ، لا عن علم أو عن عمد أو قصد ، وإن الإنسان وحده هو الكائن الحى الذى يجعل نفسه محكوماً بإرادته وشعوره ، وكل شىء فى هذا الكون — ما عدا الإنسان — يطيع أمر الله بوجه تام وهو مجبول عليه ولكن طاعة الإنسان — وحده — كما ذكرنا — هى من اختياره . وهى من حبه ورغبته وليس من قهره وإرهابه .

والقرآن يعلمنا أن الأرض والسماء وما بينهما تسجد لله تعالى ولكن الإنسان عندما يضع رأسه على الأرض ساجداً لله فإن هذا العمل بنفسه عمل جد غريب لا غرابة بعده على وجه الأرض ، لأن الأشياء كلها تسجد لله بدون قصد وإرادة ، والإنسان يسجد لله عن عمد وبقصد وبشعور وإرادة وبدون إكراه ولا إجبار .

وليس ثمة حادثة موجودة فى هذا الكون أهم وأكبر من تلك التى تقول : إن كل شىء فى هذا الكون عاجز بالنسبة للقدرة بها الإله ، فهذا العجز الكونى ما هو إلا « صفر » مجرد الذى يدل على القدرة والقوة .. فوجود شخص موحد

ويؤمن بهذه القدرة هو أكبر حادث يحدث تحت أديم السماء .. وصاحبه يستحق أفضل الجوائز والتقديرات .

حقيقة الجنة :

إن الجنة عالم عجيب خلقه الله لعباد المطيعين وسوف تتجلى فى هذا العالم صفات الله تعالى الكمالية بكل وضوح وجلاء ، وقد جاء فى القرآن عن أصحاب الجنة: « **ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » وهذه ميزة عجيبة إلى حد الإعجاز ، لأننا نرى أنه لا يمكن لشخص أياً كان ، وأينما كان فى هذا العالم أن يعيش حياة لا تشوبها شائبة الحزن والخوف .. وقد جاء — أيضاً — فى القرآن : « **تحيتهم فيها سلام** » وهذه الكلمات تدل على أن الجنة تكون موطناً لزمرة من الناس الذين لا يضمرون فى أنفسهم شيئاً من أحاسيس أو مشاعر سلبية ، وقد ذكر فى الحديث عن الجنة أن الإنسان إذا تناول غذاء أو مشروباً فى الجنة فلا يخرج الغذاء والمشروب بطريقة الإفراز (البول والغائط) ، بل سيخرج هواء يفوح بعطر ويزيل ما لحق بالإنسان من أذى ، وهذا يدل على أن الجنة مقام لطيف حيث تخرج حتى فضلات الأغذية بشكل رائحة طيبة .

وقد ورد فى الحديث أن الإنسان لن ينام فى الجنة التى ستتحقق فيها مطالب الإنسان ، وهذا يعنى أن الجنة تكون مليئة بالمتعة واللذة لدرجة أن الإنسان لن يضيع فيها ولو مقدار نوم ليلة حتى وإن عاش ملايين السنين فيالها من لذة ومتعة لا توصف .. وفوق ذلك كله سوف يرى الإنسان خالقه صاحب الحول والطول والفضل والمنة الذى له الأسماء الحسنى وله ما فى السموات والأرض وله سائر الصفات الكاملة ..

هذا هو المكان الذى لم يخطر على قلب بشر فنعم المولى ونعم النصير ونعم المكان ونعم المصير ..

الحياة الإيمانية

إن هذه الجنة لا يمكن أن يحصل عليها إنسان بثمن زهيد وإنما هي الجائزة لروح مطمئنة مؤمنة أثبتت إيمانها بكل طرق الإثبات . فإن الإيمان ليس أمراً هيناً ولا يكون الإنسان مؤمناً بممارسة بعض الواجبات الإسلامية مع الذوبان فى الحياة الدنيوية العادية . إن الإيمان ليس عملية تركيب لحام شيء بشيء وترقيع عمل بعمل . . بل معنى الإيمان أن يصبغ حياة الشخص بصبغة الإيمان ، حتى يضم الإيمان بين جناحيه سائر نواحي الحياة .. إن الإسلام ليس بمثابة (خنصر) بيد الإنسان بل هو (يد) الإنسان بكاملها فمن جعل الإسلام ذيلا فقد أهان الإسلام وهون من شأنه ، وفى المقابل فإن الإسلام لا يطلب من شخص أن يلعب دور الضابط العسكرى ؛ أو يقوم بدور الشرطى المعارض للحكام ، ويحسب أنه يحسن صنعاً ، ويؤدى واجباً إسلامياً .. إن هذه السياسة وضيعة لا تمت بصلة إلى الإسلام وإن هذا الأسلوب جرم يقترف بحق الإسلام ، بل هو جريمة للتهويل من شأن الإسلام .. وهو جزء من حركة تحريف الدين .

وكلا الأمرين (التلفيق فى الدين أو التحول إلى شرطى وقاض وليس داعية) يثيران الغضب لا الرحمة من الله سبحانه وتعالى .

إن المؤمن شخص دخل فى قلبه الإسلام على هيئة طوفان نفسى جعله يجد ربه أقرب إليه من حبل الوريد ، إنه إنسان انشغل بمناجاة ربه ، وغمرت خلوته بذكر الله ، ولجم الإسلام لسانه فظل صامتاً لا يتكلم إلا عن ضرورة ، وفى يديه ورجليه أغلال من خوف الله ، إنه يشاهد ميدان الحشر قبل ساعة الحشر .

والواقع أن الأمر الذى يشاهده الكافر بعد موته يجربه المؤمن قبل موته فالمؤمن يعرف – من دينه – فى حياته ما لا يعرف الكافر فى حياته . إن الكافر سوف يراه – فقط – عندما تتمزق أستار الغيب أمام عقله ، فيصبح الغيب أمامه مشهوداً مكشوفاً .

الدعوة الإسلامية

إننا نعبر عن لهيب النار عندما يدركنا لظاها بكلمة (الحرارة) .. ونعبر عن إحساسنا بالثلج عندما نشعر بصقيعه بكلمة (البرودة) .. وهذا هو شأن المؤمن مع الإيمان ، فإن الإيمان لابد أن يجعل نفسه محسوساً فى الخارج ، يشعر المسلم الناس بحرارته ولهذا فوجود مؤمن على أية بقعة من الأرض يجب أن يكون ضماناً لاستمرارية الدعوة الإسلامية فيها ، فإذا دخل الإيمان قلب الإنسان فلابد أن يظهر أثره فى الخارج .. وهذا هو معنى الدعوة الإسلامية .

إن الدعوة الإسلامية تتوخى إيجاد تغيير فى الفرد لا إيجاد زعزعة فى الكيان القومى أو الدولى . إن التغيير الإسلامى بمثابة ثورة نفسية أصلا ، وبما أن الثورة النفسية لا تحدث إلا فى نفس الإنسان ، فكذلك يتركز تأثير الإسلام – أولا – فى الفرد . والواقع أنه ليس للكيان القومى أو الدولى أى وجود نفسى إلا من مجموع الكيانات الفردية . وإذا استهدف كياناً وطنياً أو دولياً للدعوة الإنسانية فكأنما رمى بسهامه فى الفضاء رجماً بالغيب .

وربما نجد الأوضاع القومية أو الجغرافية تدفع بعض الناس إلى الحركة والنشاط ، لكن إذا قدر وبدأت الحركة فى المجتمع الإسلامى نتيجة لهذه الأحوال السياسية أو القومية فلن تسمى تلك الحركة حركة إسلامية .

وكذلك انطلق المسلمون فى صراعهم مع العدو منطلقاً قومياً لكنهم عبروا عنه بكلمة (الجهاد) أو إذا شرح المسلمون صراعهم القومى بمصطلحات الدين ، فإن هذا التفسير أو الشرح لا يمتان بصلة إلى الإسلام . ويكون تسمية ذلك إسلاماً ، تسمية غير حقيقية .. و هذا يستوجب العقاب ولا يستوجب الرحمة أو النعمة . ومن هنا فنحن نرى أن كثيراً من الحركات الإسلامية التى برزت إلى حيز الوجود فى هذا العصر لم تنل أية فائدة ، كأنها لم تفز بأية درجة عند الله ..

والحق أن كثيراً من هذه الحركات مجرد قلاقل واضطرابات وطنية لا علاقة لها بالإسلام الحقيقى . إن حركة الدعوة الإسلامية هى حركة الدعوة إلى الجنة .. والجنة مكان لطيف ونفيس سيعمرها أشخاص تخلقوا بأخلاق الله وقاموابشهادة الحق فى علاقاتهم اليومية وتحركوا بدافع من الآخرة لا من أجل هدف سياسى أو اقتصادى(١) .

إن هذه الدنيا دار ابتلاء واختبار ولا يدخل الجنة إلا من فاز فى هذا الاختبار وأثبت أنه يستحق الفوز بالجنسية فى « الجنة » (٢) . وأما بقية الناس فيرفضون ليعيشوا فى هوة الظلام مطرودين من رحمة الله .

إن العالم الكونى جميل وجذاب ما عدا عالم الإنسان .. انظر إلى عوالم الزهور والرياحين وإلى الأشجار الباسقات الوارفات الظلال ، وانظر إلى المناظر الطبيعية الممتدة بين الأرض والسماء .. إنها تأخذ بمجامع القلوب

---

(١) بل الأهداف السياسية والاقتصادية وسيلة للآخرة .. لكنها وسيلة ضرورية (المرجع) .

(٢) تعبير جنسية الجنة تعبير لطيف .. وهى جنسية مؤهلاتها التقوى لا العنصرية (المراجع) .

ويود الإنسان أن يراها دون أن يغمض جفنيه ، ولكن على العكس من ذلك دنيا الإنسان فهى حافلة بالأرجاس والآلام والمظالم ، فلماذا هذا الفرق بين عالم الإنسان وعالم الكون ؟ ..

إن السبب الوحيد هو أن العالم الكونى تحكمه النواميس الإلهية الكونية دون اختيار ، ولهذا ظهرت كما شاء الله أن تظهر ، ولكن الإنسان قد أعطاه الله الحرية ، وبسوء استعمال هذه الحرية جعل هذه الدنيا جحيما . إن الله هو مالك جميع الخيرات والطيبات فإذا نفذ إرادته تكونت (الجنة) وإذا أمسك إرادته تكون الجحيم .

والسؤال المطروح هنا هو : لماذا عرض الله هذه الدنيا للخطر بإعطاء الإنسان حرية التصرف ليتصرف فيها كيف يشاء ويحول هذا العالم الجميل بسوء تصرفاته وفساد أعماله إلى دار عذاب ؟ ..

والجواب أن ذلك للاختبار والاختيار .. فالفائزون من بنى آدم يستحقون الإقامة فى دار الجنان .. والخاسرون لهم عذاب أليم فى جهنم وبئس القرار .

حقيقة أن عالم الله الواسع ينقاد له سبحانه، بحيث لا يتمرد عليه شيء فى هذا العالم من النملة إلى الكواكب والمجرات العظيمة .. ولكن جميع هذه المخلوقات منقادة بدون شعور ، ولا تعلم شيئاً إلا الطاعة والانقياد وهى لا تستطيع غير ذلك ، فأراد الله أن يخلق مخلوقاً يتمتع بالحرية فيستعمل هذه الحرية لطاعة الله بإرادة وشعور على علم وعن عمد فكان هذا المخلوق هو هذا الإنسان .

لقد خلقت هذه الدنيا للإنسان اختباراً وابتلاء ، والحق أن قلق الإنسان وعذابه يرجعان إلى (الفساد فى الأرض) .. وفى رأى مفكر من المفكرين

أن التاريخ الإنسانى كله يبدو كأنه سجل للفساد والظلم .. فالواقع أن الإنسان يستعمل حريته للفساد فى الأرض ، وهذا حق ، ولكن الله سبحانه قدر هذا الجانب المظلم للحياة الإنسانية لأجل اختيار (النوع الأفضل) أو الزمرة المصطفاة من الإنسان .

إن الزمرة المختارة من الجنس البشرى هى النوع الأفضل ، وهؤلاء الأفراد هم الأفراد الذين كان بإمكانهم أن يكذبوا الحق فلم يكذبوه ، وكان بوسعهم أن يرفعوا راية أنانيتهم فلم يرفعوها ورضوا بأن يكونوا فى الصف الخلفى ، وأن يكون خالقهم — سبحانه — هو الآمر والناهى — لقد كانت لهم حرية أن يبنوا قصراً لمصالحهم ، ولكنهم هدموا قصرهم بمعول الإيمان ، ورضوا أن يرفع (قصر الحق) فقط .. على وجه الأرض، وإن الدعوة الإسلامية لترمى إلى العثور على هذه الأرواح النظيفة الطيبة لتنجيها من النار ولتسوقها سوقاً إلى الجنة .

الإصلاح الإسلامى :

إن أساليب الثورة السياسية أو المدنية ليست من الأساليب التى يتوخاها الإسلام مباشرة ولكن التغير إلى الأصلح نتيجة غير مباشرة لتطبيق الإسلام . وعندما تتكون زمرة فى مجتمع ما ، تلتزم بأن تحيا لله وتموت لله ، فإنها سوف تقود العهد وحضارته بطريقة تلقائية .. فإن السياسة الإسلامية أو انتظام الإسلامى عبارة عن انتقال تلقائى للسلطة إلى أيدى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .. إنهم الرجال الذين يتذوقون حلاوة الإيمان ولا يرضون بها بديلا ، ويتنازلون عن مطامعهم وأغراضهم فى الدنيا .. ويعيشون — وهم فى الدنيا — فى نعيم الآخرة .. هذه هى (الزمرة المختارة) المؤهلة لكى تسود ، وعندما ينتهى إليها الحكم تقيم الصلاة وتأمر بالمعروف

وتنهى عن المنكر (فهذه هى دعائم النظام الإسلامى) ولا يمكن تكوين هؤلاء الأفراد إلا ببناء حركة خالصة للآخرة لاتشوبها شائبة المقاصد الدنيوية ..

وعلى العكس من ذلك إذا حدث انقلاب بقوة المظاهرات أو الهتافات فلن يكون ذلك انقلاباً إسلامياً بل يكون فوضى غالباً ما تكثر فيها هتافات الإسلام بينما تفقد حقيقة الإسلام ، وسوف تتكرر فى هذا الانقلاب كلمات « العدل » و« الحق » و« الحكم للإسلام » حتى يكون هناك دوى فى الآفاق ولكنك فى الحقيقة لا تجد وراء هذه الهتافات الا أغراضاً شخصية للقبض على مقاليد السلطة ، والإطاحة بعروش الآخرين ..

إن جميع الاجتماعات والمؤتمرات الكبيرة والخطب الرنانة التى تنستر بعنوان الإسلام أو الأخلاق أو الإنسانية ليست فى حقيقتها إلا لدعم قيادة حزبية معينة ..

إن الشرط الأساسى للنهضة الإسلامية إنما هو وجود أشخاص فاقدى الأنانية ، وهذه هى الميزة التى تفتقدها الحركات المعاصرة ، بل على العكس فإن هذه الحركات ذات الطابع السياسى والوطنى توفر غذاء للأنانيةالشخصية وهى لا تستطيع أن تستأصل هذه النفسية الأنانية ، ولا تقدر أية حركة رامية إلى القيام بثورة خارجية على أن تخلق (إخلاصاً) أو طهارة داخلية أو تسهم فى تكوين خلق حسن نابع من دافع ذاتى لا من دافع خارجى ، فكما لا يكسب شخص المال لغيره فلا يمكن لشخص أن يتصف بصفات حسنة بمحركات خارجية .. والذين يعتقدون أن التحلى بالأخلاق النبيلة يمكن أن يتم باسم « النظام » إنما يقدمون الدليل على سطحيتهم وبلاهتهم فقط

وظيفة الرسول :

مهمة الإسلام مهمة واحدة وهى دعوة الناس إلى التوحيد ورصد الجهود لجعل الإنسان إنساناً مؤمناً وموحداً ، وكانت هذه هى مهمة كل

الأنبياء ، ولكن دعوة التوحيد قبل بعثة النبى الخاتم محمد — صلى الله عليه وسلم — كانت تقتضى التضحية بالأموال والأرواح . والذين قاموا بمهمة الدعوة إلى التوحيد ذاقوا أنواعاً من العذاب وألقوا فى النار وتمزقت أجسامهم تمزيقاً .. وكان سبب ذلك أن الشرك يتمتع بسطوة فكرية من قديم الزمان ، وحتى السياسة كانت تقوم حينذاك على دعائم الشرك ، وكان الملوك فى قديم الزمان يحكمون بحجة أنهم من سلالة إله من الآلهة ، ويعتقدون بحلول ذات الإله فى أنفسهم ، فعندما يدعو الداعى — مع هذه الوضعية — إلى التوحيد وإلى الإيمان بأنه لا إله إلا الله فإنهم كانوا يعتبرون هذه الدعوة تحدياً لحكمهم ومقاومة لسلطتهم ، وكانوا يرون فى هذه الدعوة رفضاً لسياستهم المشركة وخوفاً على مصالحهم السياسية ، وكانوا يبيتون العداء لدعاة التوحيد ، ويذيقونهم سوء العذاب .

لقد أراد الله أن ينتهى هذا الوضع إلى أبد الآبدين ، ولهذا أرشد الله رسوله والصحابة إلى الدعاء الذى جاء فى القرآن : « **ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا** » .. فإن هذا الأسلوب فى الدعاء كان يوحى بأنه سيحدث انقلاب جديد فى التاريخ الإنسانى سوف يسفر عن قطع وشيجة (الشرك) عن السلطة والحكم باسم الآلهة ، وسوف يكون الحكم بعد ذلك أمراً (سياسياً شرعياً) وليس أمراً (عقائدياً) .. وكانت هذه هى الخطة الإلهية التى بموجبها أمر الله المسلمين بقوله تعالى : « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** »(١) ، ومعنى الفتنة (الابتلاء) . يقال فتن فلان عن رأيه يعنى : صرف عن رأيه ، وجاء فى سورة يونس (آية ٨٣) : « **أن يفتنهم** » أى يعذبهم ، فإن الفتنة

---

(١) الانفال ٣٩

ترادف الكلمة الإنجليزية « Persecution » يعنى الإيذاء أو الاضطهاد أو التعذيب من أجل فكرة أو عقيدة .

فما هى الفتنة التى أمر الله من أجلها باستئصال المشركين .. ؟ .

إنها هى فتنة الشرك ، فقد فسر المفسرون كلمة الفتنة (بالشرك) ، غير أن الشرك ليس هو الشرك على الإطلاق وإنما هو الشرك الجارح . إذ أن (الشرك الجارح) هو الذى يصبح عائقاً فمعنى « حتى لا تكون فتنة» أى حتى لا يمتن رجل عن دينه ، يعنى قاتلوا الشرك الجارح حتى يندثر وتطمس آثاره ، ويكون دين التوحيد هو الغالب والمهيمن .

إن الشرك فى صورته الأولية عقيدة بحتة ولكنه كان محور (الفتنة) فى قديم الزمان ، وكان السر فى ذلك أن الشرك فى قديم الزمان قد استولى على الفكر الإنسانى وأحاطه من كل الجوانب ... كان الإنسان فى قديم الزمان يرى كل شىء بمنظور الشرك حتى بنبت السياسة والسلطة على الشرك . كان الناس يحسبون الشمس والقمر إلهين من الآلهة ، والأسرة المالكة كانت تدعى أنها من سلالة الشمس القمر ، ولا يكاد يصدع داعى التوحيد بقول « لا إله إلا الله » حتى ينزل عليه المشركون النوازل ويصبون عليه جام غضبهم ويورطونه فى المحن والشدائد .

إن الانقلاب الإسلامى الذى حدث فى الجزيرة العربية وضواحيها قد خلع الشرك من مكانته الفكرية ، وانتزع منه النفوذ الفكرى فبات الشرك عقيدة ذاتية ، ولم يعد فكرة شعبية يقوم عليها نظام الحياة الاجتماعية ، وقد أسفر ذلك الانقلاب عن انفصال علاقة الشرك عن الحكم ولم يعد بإمكان شخص أن يدعى حق الحكم باسم الشرك ..

لقد كان هذا أول انقلاب فى التاريخ الإنسانى المعلوم ، ونخص بالذكر هنا شيئين من آثار هذا الانقلاب الكامل المحيط بجميع نواحى الحياة :

أولهما : أن الناس لما علموا أن الله هو « إله واحد » وما عداه مخلوق ومحكوم ، ماتت عقلية تقديس مظاهر الطبيعة والأشياء التى كانت آلهة تعبد ويسجد لها .. بل أصبحت (الطبيعة) خادمة للإنسان مسخرة له ، فذهب الإنسان يستكشف كنهها وحقيقتها ويستخدمها لحاجاته .. كان هذا هو (الانقلاب الفكرى) الذى قضى على عهد الأوهام والأساطير ، وافتتح عصر العلم الحديث .

وثانى الأمرين : أن هذا الانقلاب انقرض به عهد عبادة الملوك على المستوى الفكرى — على الأقل — وبدأ عهد الشورى ... ولما علم الناس أنهم سواء وليس فى أى إنسان منهم صفة الألوهية ، لم يبق لأحد حق الحكم الإلهى على وجه الأرض .

لقد انطلق (هذان الانقلابان) من دولة الإسلام فى المدينة ، ثم وصلا إلى دمشق ، فبغداد ، وأسبانيا ، وصقلية .. حتى انتشر فى معظم أقطار العالم .. وكانت هذه الحركة الفكرية (التوحيدية) تعانى من عقبات حيناً بعد حين بسبب ما استقرت فى الأذهان والعقول من شرك قديم ، ولكن مع هذه العقبات كانت هذه الحركة الفكرية تمضى قدماً نحو الأمام ، ولم تصادف أية محاولة من القوى المعارضة النجاح فى استعادة عهد تقديس الطبيعة ، ولم يتمكن أى حاكم من أن ينال مكانة الملك المعصوم المقدس ، كما نال النمرود فى العراق وفرعون فى مصر فى قديم الزمان.

من العالم الإسلامي إلى العالم الغربي

لقد انطلق هذا الانقلاب ، وبقى نحو ألف سنة فى العالم الإسلامى .. ولكن مع بدايات القرن السادس عشر الميلادى كانت قد تصدعت وحدة المسلمين حتى انقرضت الدولة العباسية التى كانت عاصمتها بغداد ، ثم انقرض عهد المسلمين لنفس السبب فى أسبانيا ، فلم تبق فى العالم الإسلامى هيئة أو مؤسسة تقوم برعاية العلماء الذين كانوا يكرسون حياتهم للبحث والتنقيب ، وأمام هذا الوضع اضطر هؤلاء العلماء والمفكرون إلى النزوح تدريجياً إلى إيطاليا وفرنسا ، فلقى هؤلاء العلماء حفاوة بالغة فى أوربا لأسباب معلومة .. وبالتالى بدأت آثار انقلاب (التوحيد) الذى كان قد بدأ فى العالم الإسلامى تنتشر فى أروبا ، غير أن هذا العمل تعرض لتغيير عندما وصل إلى أوربا .

كان هذا الانقلاب قد ظهر إلى الوجود فى العالم الإسلامى بتأثير (الإسلام) ولكن أوربا لم تكن مسلمة فقامت بتطوير هذا العمل من الناحية العلمية فقط ومع أن انتقال العلوم الإسلامية وتعليم اللغة العربية أثر إلى حد كبير على العقائد المسيحية حتى إن أفكار مارتن لوثر (١٤٨٣ — ١٥٤٦ م) كانت وليدة أثر الإسلام على أوربا مباشرة ، ولكن هذه النهضة العلمية والفكرية ظهرت فى أوربا كحركة (علمانية) وليست ذات روح دينى .. إن الثورتين العلمية و(الديموقراطية) اللتين ظهرتا فى أوربا قد نبعتا من نبع انقلاب التوحيد الإسلامى . ولكن الغرب الأوربى أعطى هاتين الثورتين الصبغة العلمانية .. فمما لا شك فيه أن الثورة الأوربية الجديدة إنما هى (صورة دنيوية) (للثورة الإسلامية) كما نجد (القنبلة الذرية) صورة عسكرية لنظرية النسبية (ألبرت اينشتاين) والملكية (الجماعية الاشتراكية) صورة اقتصادية للنظرية الماركسية .

دور الإسلام فى ظهور الحضارة الأوربية

ذكرنا أن الثورة العلمية أو الانقلاب الغربى الجديد كان وليد الانقلاب الإسلامى ، وكانت نتائج هذا الانقلاب هامة جداً من الناحية الإسلامية .

كان هذا الانقلاب استجابة فى هذه الدنيا للدعاء الذى ورد فى القرآن : « **ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا** » فإن التغييرات التى حدثت كانت فى صالح المسلمين فى الحياة الاجتماعية على النحو التالى :

أولا : لقد كان الملوك فى قديم الزمان يحكمون الناس بحجة أنهم من سلالة الآلهة ، ولذلك ظلت دعوة (التوحيد) فى قديم الزمان معارضة للحكم السياسى فكانت تتعرض للمقاومة والحظر ، لأن المتألهين المستبدين من الحكام كانوا يعتقدون أن مقاومة الشرك تحمل ضمناً معارضة لحق حكمهم ، فالثوره الفرنسية التى ظهرت إلى الوجود فى أوربا إنما قامت نتيجة للثوره الفكرية الإسلامية التى قضت على عقيدة تأليه الملوك إلى أبد الآبدين ، فظهرت لأول مرة فى التاريخ إمكانية نشر التوحيد والدعوة إليه بدون خشية الاضطهاد .

ثانياً : والشىء نفسه — كما ذكرنا — فى أمر عبادة مظاهر الطبيعة وتقديسها ، فإنه لما جاء الإسلام أحدث انقلاباً عظيماً فى الفكر فصار الناس يعتبرون هذه المظاهر الكونية مظاهر مادية عامة ، وأصبحت هذه المظاهر موضوعاً للبحث والتنقيب والتحليل لا موضوعاً للعبادة والتقديس

إن هذه الثورة الفكرية كانت فاتحة عصر (العلم والتكنولوجيا) ، وبالتالى تمكن (الإنسان) من اختراع وسائل المواصلات والاتصال الحديثة ، مثل المطابع والراديو والتليفزيون حتى ظهرت ولأول مرة فى التاريخ إمكانية نشر الدين على صعيد دولى .

ثالثاً : ونتيجة هذا الانقلاب الجديد أصبحت حقائق الكون مكشوفة وصارت هذه الحقائق ذات دلالة علمية على صحة مبدأ التوحيد والمعتقدات المتعلقة به .. فلأول مرة أصبح من الممكن إثبات الحقائق الدينية بأدلة منبثقة من مشاهدة عالم الطبيعة .

رابعاً : إن هذا الانقلاب أبدع منهجاً علمياً نقدياً موضوعياً لا تشوبه شائبة الأوهام والخرافات ، ونتيجة لهذا الانقلاب الفكرى تم الاعتراف بأن جميع الأديان غير تاريخية وغير موثوق بها إلا بالإسلام وانظر فى ذلك كتاب « The Bille and He Quren and Science » (الكتب المقدسة فى ضوء العلم الحديث — لموريس بوكاى Maurice Bucaille).

سيطرة أوربا على العالم الإسلامى

لقد انتصر العالم الإسلامى فى الحروب الصليبية على أوربا المسيحية ، ولكن بعد هذا الانتصار بدأ الوضع ينقلب تدريجياً ، إذ أدركت أوربا النصرانية أن سبب الهزيمة هو تخلفها عن العالم الإسلامى فى الميدان العلمى والفكرى ، فعكفت على تعلم العلوم الإسلامية واللغة العربية . وبعد قرون كثيرة عندما نزح العلماء المسلمون من عواصم الدولة الإسلامية — كما أسلفنا — إلى أوربا سار الركب العلمى فى أوربا سيراً حثيثاً حتى سبقت أوربا المسلمين فى جميع مناحى العلم والعمل ونالت قصب السبق فبدأت تتوغل فى البلدان الإسلامية حتى تم لها الاستيلاء على كافة البلدان الإسلامية تقريباً .

إن هذه هى الكارثة السياسية التى أدت إلى ظهور ما يعرف بالنضال السياسى ، حيث رأى المسلمون أن الأمم التى هزمت فى الحروب الصليبية قد دخلت ديارهم وانتصرت بعد فشلها الذريع . وبالتالى بدأ عهد (النضال

السياسى) فى جميع البلدان الإسلامية وأصبحت فكر النضال السياسى شغلا شاغلا للمسلمين ، وأصبح البعض منهم يعتقدون أن هذا النضال السياسى هو (حقيقة الإسلام) وهو الطريق لكى يعلنوا هذا (الجهاد المقدس) ضد الحكام الوطنيين عندما يفرغون من الجهاد السياسى ضد الحكام الأجانب .. فى هذه البيئة السياسية لم يكن يسمح لأحد أن يبحث عن إمكانيات جديدة فى العالم الجديد — خارج نطاق النضال السياسى — تضمن أو تتكفل بنجاح الدعوة الإسلامية .. كانت هذه الإمكانيات تنتظر شخصاً يقوم بعبء الدعوة ، ويستغل (الإمكانيات الجديدة) ويستحث الأمداد الإلهية ، ولكن (النفسية السياسية) شغلتنا عن السير على جادة الإسلام والدعوة الإسلامية.

حقيقة الانقلاب السياسى

• ما هو موقف الإسلام من الانقلاب السياسى .. ؟ ..

إن الانقلاب السياسى فى نظر الإسلام هو سيطرة أهل الحق على أهل الباطل ، ولقد صرح القرآن بأن هذه السيطرة تتحقق بنصرة الله وتوفيقه « **وما النصر إلا من عند الله** » .. والشرط الأساسى لاستحقاق النصرة الإلهية هو القيام بواجب الدعوة ، فعندما يقوم أهل الحق بمهمة الدعوة مستوفين جميع الشروط اللازمة ويصلون إلى درجة التأهيل الكامل ، فإنهم يستحقون لقيامهم بحق الدعوة جائزة من الله ، كما يستحق أهل الباطل — برفضهم هذه الدعوة — عقاباً من الله . فينزل الله نصره ، وتنقشع سحب الظلم عن المسلمين ، وتجرى الأمور فى المجرى الذى يقلب كفة الميزان على الأرض ، وحينئذ فقط ينتصر المسلمون بتأييد الله .. فهذه هى سنته فى التغيير والنصر : « **ولن تجد لسنة الله تبديلا** »(الأنعام ١٣٦)

لقد قرر القرآن فى غير مكان أن سيطرة الأمم غير الإسلامية على الأمم المسلمة إنما يكون بحكم قانون الاختبار والامتحان.. أما نصرة المسلمين على أعدائهم فالقرآن يقرر أنه يكون بحكم قانون (القيام بالبلاغ) فإذا لم نقم بواجب الدعوة إلى الله ، فليس لنا أن نتوقع انتصار المسلمين على غير المسلمين .

رد الفعل السياسى فى العالم الإسلامى

صادفت بداية القرن الرابع عشر الهجرى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى ، وعند هذه النقطة نقول : لقد كان القرن الرابع عشر الهجرى ذا أهمية خاصة فى التاريخ الإسلامى ، إذ أن هذا القرن بدأ عندما اكتمل الأثر الناجم عن انقلاب (التوحيد) الإسلامى ، وقد تهيأت جميع الوسائل اللازمة لنشر الهداية التى أنزلها الله للعباد بواسطة محمد خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم — ولكن — يا للأسف — هناك مأساة سوف يسجلها التاريخ وهى أن المسلمين — بأنفسهم — قد أغلقوا ذلك الباب الذى فتحه الله لهم نتيجة تطور دام ألف سنة .

لقد استخدمت أوربا (القوة) التى وفرها الانقلاب الجديد لنشر مطامعها القومية ، وقد حذا الآخرون حذوها ، فلم تلبث الأمم الأوربية أن سيطرت على ما تعتبره من الطاقات الجديدة حتى رأينا هناك شيئاً يدعى (الاستعمار الغربى) يمثل ظاهرة عالمية ، فقد خرجت أوربا وانتشرت فى العالم وغرست البياريق والأعلام الغربية فى البر والبحر ، ونشرت حضارتها فى البلدان الأخرى . أما الذين وضعوا العراقيل فى وجه نفوذ أوربا وسلطانها فقد تعرضوا لكثير من أنواع الظلم والقهر .. وكان أن أصبح المسلمون مباشرة فريسة اعتداءات الدول الغربية ، إذ أن معظم العالم الذى زحفت عليه أوربا الاستعمارية كان تحت سيطرة المسلمين .. ونتيجة لهذا الوضع ، نظر المسلمون إلى هذا الانقلاب الفكرى الغربى على أنه قوة معادية لهم تريد إعمال السيوف فى رقابهم وإنزالهم عن عرش العظمة والمجد . وبالتالى فلم يروا الجانب المفيد الصالح للانقلاب الغربى (فى المجال العلمى) بل جعلوه بالجملة خصماً اقتصادياً وسياسياً .

كان القرن الرابع عشر الهجرى أول قرن فى تاريخ الإسلام كله يوفر إمكانية نشر دعوة التوحيد بيسر وسهولة ، وبطرق ملائمة ، بينما كان دعاة الإسلام فى الزمان الماضى يقومون بمهمة هذه الدعوة فى وضع غير ملائم يسوده جو التوتر والمعارضة والاضطهاد .. وكذلك ولأول مرة فقد برهن الدين الإسلامى على أنه دين موثوق به بالمقاييس التى وضعها الإنسان نفسه فى هذا العصر الحديث ، فكان من مقتضيات العصر أن يقدم ويعرض بكل الأدلة العلمية حتى لا ينكره إلا جاحد متعنت .. وكذلك لأول مرة فى هذا القرن برزت إلى حيز الوجود وسائل النقل والمواصلات المتطورة التى كان يمكن استعمالها لنشر رسالة الإسلام على نطاق دولى وفى أقصر وقت ممكن ، ولكن لأن الأمم التى جلبت لنا هذه الطاقات الجديدة أصبحت خصماً سياسياً بطريق (الصدفة) فبالتالى أصبح العالم الإسلامى كله ذا نفسية انهزامية ، وعمت فيه موجة الاستنكار والاستهجان للدول الغربية ، وغاب عن نظر المسلمين ضرورة امتلاك ما ينفعهم من هذا الانقلاب الغربى الجديد ولكن الواقع أن الله قد فتح للمسلمين إمكانات جديدة من خلال هذا الانقلاب ، وكان يمكن استعمالها لمقاصد الدعوة الإسلامية ، وللقيام بغزو فكرى للدول الأوربية . ولو تفَطّن المسلمون إلى هذه الحقيقة ، واتخذوا خطوة حكيمة لظهر من جديد ذلك الحادث الذى ظهر فى القرن الثامن الهجرى فى شكل اعتناق (التتار) الفاتحين للإسلام .

ومما زاد الطين بلة أننا لم نقم بإنشاء رابطة إسلامية صحيحة مع الأمم الأخرى . إن جميع الأمم والأقوام إنما هى حقل خصب للدعوة الإسلامية ولكن النفسية السلبية الناتجة عن الاستنكار والامتعاض أدت إلى إهمال هذه الحقيقة . فإن الإسلام الذى عرفته كثير من الحركات الإسلامية المعاصرة على اختلاف أساليبها ، كان إسلاماً قومياً ، وليس ديناً نزل لهداية العباد

لإخراجهم من الجحيم وإدخالهم الجنة . إن العجز الذى سيطر على الحركات الإسلامية وجعلها لاتميز بين (الغرب الاستعمارى والغرب ذى الطاقة الجديدة) هذا العجز سبب الحيلولة دون تعبئة الإمكانات الجديدة لخدمة الدعوة ونشرها فى العالم ، بل على العكس راح المسلمون - فى بعض الأحيان - يضحون بأنفسهم ، وبنفائسهم الممتدة إلى ألف سنة دون وعى أو عقل . وقد قدر لهذه التضحيات أن لا تعود بفائدة فى عالم الأسباب ، فإن هذه السياسة غير الواعية للحقيقة استمرت إلى فترة زمنية طويلة وألحقت هذه السياسة ضرراً بنفسية المسلمين فصار عالم الإسلام بجملته مصاباً بجنون العظمة المفروضة « Paranoia » وكان من جزاء هذا أن لا يسمع لأى رأى مخالف ولا لأى رأى جديد رشيد .

مسئولية ولا فخر

قام رئيس باكستان الجنرال (محمد ضياء الحق) فى مستهل أكتوبر سنة ١٩٨٠ م بإلقاء خطبة فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ، استغرقت ساعة ونصف الساعة ، وكانت خير معبر عن مشاعر مليار مسلم فى العالم - على حد تعبيره - وهذه فقرة من كلمته المكتوبة ، جاء فيها :

« بمناسبة بداية القرن الخامس عشر الهجرى تعتز الملل الإسلامية من جديد على فخرها بدينها وبعظيم حضارتها ونظمها الاقتصادية والاجتماعية المنفردة - وهى واثقة بأن بداية هذا القرن ستسجل فاتحة عهد جديد . . وأن مبادئها السامية للأمن والسلام والعدالة هى خير للإنسانية وهى سبيل التفاهم بين الشعوب ، ولسوف تمكنها من أداء دور عظيم لإسعاد الإنسانية »

كان الجنرال (محمد ضياء الحق) يشيد بالمسلمين ويثنى عليهم ، ولكن فى هذه الإشادة يكمن سر مأساة المسلمين .. لقد ذهب الفخر

بجهودهم فى هذا العصر أدراج الرياح .. إن العلم الإسلامى اليوم ملىء بالنشاطات والحركات باسم الإسلام ولكن هذه الضجة كلها تبنى على نفسية الغرور والاستعلاء لا على نفسية الشعور بالمسئولية .

مع أن القرآن يحذرنا من أن تكون الأعمال الدنيوية دافعها الفخر والاعتزاز « **ولا تفرحوا بما آتاكم** » ويطالبنا بأن تكون جميع الأعمال دافعها الشعور بالعبودية « **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** » .

إن الفخر يثير الأنانية وحب السمعة ، وإن السمعة تثير روح التواضع والشعور بالمسئولية ، إن الإسلام عقيدة قامت بتحذير الناس من النار وإعدادهم لجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .. لكن كثيراً من حركات العصر الحديث المنسوبة إلى الإسلام قامت لإحراز المكانة السامية فى الدنيا . وقد أبرزها إلى حيز الوجود (الشعور القومى) المتلفع برداء الإسلام .. فصار الإسلام للمسلمين مجرد باعث للاعتزاز والافتخار وليس صراطاً مستقيماً للآخرة ، وناهيك بهذه الحقيقة دليلا على أن بعض الحركات الإسلامية مجرد حركات قومية وليست حركات إسلامية خالصة . إن الدين الذى يثير مثل هذه الضجة فى المسلمين اليوم إنما هو دين (قومى) أو نحلة مذهبية ، وليس ديناً إلهياً ، وإن مثل هذا الدين القومى يخلق نفسية الفخر والغرور ، بينما الدين الإلهى يخلق النفسية المعبأة بالشعور بالمسئولية نحو البشرية كلها .

إن من شأن الإسلام الحقيقى أن ينشىء التواضع فى الإنسان ، فالكبر أساس الشر ، والتواضع أساس الخير .. فإذا اتسم الإنسان بالتواضع واللين استيقظت فيه خصائص خوف الله وطلب الفوز فى الآخرة ، وحب التكاتف والأمر بالمعروف ، والعفو والتسامح ، والاهتمام بالأعمال البناءة ، والشعور

بالمسئولية ، وعندما يتكون عدد كبير من هؤلاء الأبرار الأخيار فى مجتمع ما فإنه يحصل على أعلى مكانة ، وعلى العكس من ذلك الإسلام الملى والقومى فإنه يخلق نفسية الفخر والمباهاة ، ويتسم أفراد هذه النفسية بسمات الأنانية ونسيان الآخرة ، ومحاسبة الآخرين بدلا من محاسبة النفس ، وإن هذه السمات تفضى إلى النزاع والصراع ، ولا يرغب أصحابها فى الأعمال الطيبة البناءة ، بل يحبون الرياء وطلب السمعة ، ويحبون الإمامة والقيادة بدلا من حب الانصياع للحق ، وهم يتحدثون عن أعمالهم التافهة بكلمات مجلجلة لإشباع مركب النقص القائم على شعورهم بالاستعلاء .

وفى مثل هذا المجتمع يصبح الإسلام قولا يقولونه وليس عملا يؤدونه . وهذا المجتمع المنافق يستحق غضب الله ولا يستحق نصرته وتأييده .. إننا نرى أن الحركة الصهيونية لليهود تستهدف استعادة المجد الإسرائيلى القديم وفى الهند تتوخى منظمة آر إس إس « R. S. S. » الهندوسية استرجاع الماضى الرائع .. وهذا قد دفع بعض المسلمين إلى القول بأن للمسلمين أيضاً تاريخاً مجيداً يستحق الفخر والذكر وبالتالى استنهضت الحركات الإسلامية الهمم بغية إشادة (قصر المجد) على أنقاض المجد الغابر ، ونحن نعرف أن الحركات اليهودية والهندوسية ليست حركات دينية بالرغم من استعمالها اصطلاحات دينية ، فكذلك حال الحركات الإسلامية الناشئة عن مثل هذا الشعور والتى اقتفت أثر اليهودية والهندوسية . وهذه الحركات لن تكون حركات دينية لمجرد توضيح أهدافها بمصطلحات وكلمات دينية . وفى الإسلام تقوم الأعمال على أساس النيات فإن الحركة التى تخرجها إلى حيز الوجود — نفسية أو قومية أو وطنية — سوف تكون عند الله أيضاً حركة قومية أو وطنية ولن تكون حركة دينية بحتة لمجرد استشهاد القائمين عليها

بآيات من القرآن وببعض أحاديث الرسول ، ولن يتحقق لمثل هذه الحركات وعد الله الذى يختص بالحركات الإسلامية الخالصة .

إن الشجرة الحقيقية تنمو ببذورها ولا تنمو ببذور غيرها ، فهكذا تصل إلى النتائج الموعودة من الله ، تلك الحركة التى نهضت وقامت على أسس إسلامية وليست تلك التى نشأت ونمت نتيجة العوامل أو الحوافز القومية ولو عبرت عن نفسها فى مصطلحات إسلامية وكلمات دينية .

إن الحركات الإسلامية تمثل المعرفة الإلهية التى تهدف إلى تمثل الآخرة فى الحياة الدنيا ، وإقامة الأخلاق الإنسانية والكونية فى المجتمع البشرى .

وخلاصة القول .. إن الحركة الإسلامية حركة تقوم على حقيقة أبدية وليست حركة ناجمة عن رد فعل مؤقت متأثر بالأحداث القومية .

والمؤمن دوحة باسقة تنمو فى أرض الله وجماعة المؤمنين هم روضة الله الغناء ، والذين يصفون ثوراتهم (القومية) وحركاتهم الطائشة بالدعوة الإسلامية إنما يريدون أن يقولوا إن أشجارهم الذابلة اليابسة هى روضة الله .

إنهم يخترعون أساليب الاستغلال باسم الله .. بينما هم لا يستحقون أدنى تقدير .. لا من الله .. ولا من الناس ..

الإسلام يغلب

إن أهم مسألة تستقطب عقول المسلمين اليوم فى العالم كله هى مسألة البعث الإسلامى من جديد ، ولكن لو رأينا ما اتخذوا من مناهج لاستعادة المجد الغابر لعرفنا أن لدى المسلمين تطلعاً غامضاً منغرساً فى قلوبهم ، ولكن ليست لديهم الطرق المرسومة المدروسة لاسترجاع الماضى وتحويله إلى حقيقة واقعة فى الحاضر .. ويفتقرون إلى التوعية الصحيحة الواضحة .

وللمسلمين فيما يفكرون مذاهب ومدارس ، فمن حالم يحلم بأن تعمير المساجد يتحقق بطريقة نشر بعض الأساطير والأحاديث الموضوعة فى فضائل العبادات ، ويظن هؤلاء أن هذا يكفى المسلمين فى الدنيا مغبة العمل والجهاد ، وأن الدنيا بهذا الأسلوب ستئول تلقائياً إلى كنف المسلمين . ومثل هؤلاء .. أولئك الذين يعقدون أملهم على الرقى والتعاويذ لإزاحة جبال هملايا عن مكانها ، ولرب خطيب ساحر يرى أن حل مشكلات المسلمين مضمون فى الكلمات المزخرفة والخطب الرنانة ، ولا يدرك أن هذا الكون الذى خلقه الله خاضع للنواميس المحكمة ، ولا تعود هذه الجعجعة والفيهقة وطنين الكلمات بفائدة تذكر ، ولا تعين فى إثبات حق .

ولا يقل عن سذاجة هؤلاء أولئك المتسكعون الذين يزعمون أن استرجاع نقاء الإسلام وصولته يمكن أن يتحقق بتجريد زعيم من السلطة أو الإطاحة بعرش من العروش ، أو جر حاكم إلى المشنقة .. وهؤلاء لا يستطيعون استيعاب أن المسألة ليست مسألة إخضاع شخص أو أشخاص يناهضون الإسلام والقضاء عليهم بطريق أو آخر ، بل هى مسألة إخضاع القوى العالمية التى قهرت المسلمين وشوهت مفاهيم الإسلام .. فالأمر صراع حضارى وليس قضية بعض الأشخاص الزائلين .

قانون تغيير الحكم

يبين لنا القرآن أن الله يؤتى الملك من يشاء ، وأنه سبحانه مالك الملك وهذا يشير إلى أن سيطرة قوم على حكومة ليس أمراً بسيطاً عادياً . بل يكون بقضاء الله وقدره مباشرة ، وانتصار قوم يكون دائماً على حساب قوم آخرين ، ولأجل إبراز هذا الواقع المهم يجب حدوث تغيرات واسعة جذرية تجعل الظروف مواتية لصالح جماعة وغير مواتية للآخرين .

وتطرأ هذه التغيرات غير العادية فى الحياة الاجتماعية لأسباب فوق العادة ، ويحدث الانقلاب أيا كان نوعه لأسباب كونية لا تقع عادة تحت سلطة شخص أو جماعة ، وعلى سبيل المثال فإن الثورة الاشتراكية فى روسيا قد تولدت عن ظروف وأوضاع ناجمة عن الحرب العالمية الأولى . وتيار الحرية الذى جرى فى منتصف هذا القرن وحرر معظم الدول الآسيوية والإفريقية من ربقة الاستعمار الغربى كان نابعاً من الأحوال الطارئة التى كانت أكبر نتائج الحرب العالمية الثانية ، ولم تكن فى قدرة الحركة الاشتراكية أو الحركة الوطنية أن تذكى الحرب على نطاق عالمى او لم تظهر الحربان العالميتان ..

وعلى هذا المقياس يمكن القول بأن مرد الفتوح الإسلامية السريعة فى القرن الأول الإسلامى يرجع إلى سريان الضعف والوهن فى السلطنتين ، الإيرانية والرومية بسبب حروب طويلة ناشبة بينهما ، والمعلوم أن نشوب الحروب التى دكت القوميتين العظيمتين كان فى يد الله وليس فى قدرة الإنسان ..

ونحن نعلم من القرآن أن التغيرات السياسية التى تخضع لها الشعوب تطرأ بحكم قانون الدفع « **ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت**

الأرض » وبالتالى فان هذه التغيرات لابد منها للإطاحة بنظام مستبد ، واستبدال نظام آخر به ، يكون خيراً منه .

إن التغييرات العامة تأتى من هذا القبيل وهى تغيرات سلبية النوع أما التغير الإسلامى فيخرج إلى الوجود لأغراض إيجابية وهذا التغيير نعمة ينعم الله بها على عباده الصالحين ، وهو جزاء لمن أثبتوا جدارتهم واستوفوا شرائط الصلاح والتقوى . قال تعالى :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » (النور : ٥٥) .

والحق أن البعث الإسلامى الجديد ليس أمراً هيناً يحدث بحركات سياسية طائشة عشوائية ، وإنما هو قضية مقاومة لاستبداد الكفر وسيطرة الشرك . وهى مسألة تحويل الحضارة الغالبة عن مكانها القيادى . وإحلال حضارتنا الإسلامية المغلوبة فى مكان القيادة .. إنها مسألة استرجاع عهد تاريخى والقضاء على عهد تاريخى آخر ، وخلاصة القول أن المسألة أعقد وأكبر من تصورات المتهورين ، ولا يمكن تسويتها بدون قضاء الله وطاقاته غير المرئية .

إن الأمر يحتاج إلى (طوفان نوح) الذى يكتسح ذرية الشيطان ، كما أنه يحتاج إلى آية موسوية تودى بحياة فرعون وملئه وتغرقهم فى اليم . كما يحتاج ذلك إلى ملائكة الله لينزلوا من السماء ويجمعوا طواغيت الكفر فى ميدان « بدر » ويخضعوهم للمسلمين ، وهذا معناه أنه لابد من عون الله وأنه لا يمكن للمسلمين أن يحققوا النصر — فى هذا العصر ومع هذا الوضع العالمى المعروف — بجهودهم فقط -- فمعونة الله — هى الكفيلة بتحقيق النصر .

حقيقة أنه لا مرية فى أن المسلمين سيسيرون بأقدامهم إلى الأمام ، ولكن الله سيهيىء كل الوسائل التى يصعدون بها إلى مكانة مرموقة فى وقت أقصر ، وليس هذا التغير العظيم فى قدرة الإنسان وحده .. بل إن الأحوال فى يد الله يقلبها كيف يشاء .

لقد أصبح المسلمون مغلوبين على أمرهم فى مشارق الأرض ومغاربها ولا يمكن أن يكون الحل للتخلص من هذه الحالة فى مقدور حركات عادية وإنما يكون الحل فى ظهور أحوال غير عادية ، وبالتالى فلا يمكن تحقيق أحلامنا وآمالنا إلا إذا جعلت الإرادة الإلهية جهودنا مواكبة لحركة التاريخ وأحدث رب المشرقين والمغربين شقوقاً ومنافذ فى الصخور السياسية والمدنية التى تقف فى وجهنا .

إن خالق الأرض والسموات لن يتركنا وحدنا ، ولسوف يعيننا إذا استحققنا نصره . بالرياح والعواصف التى تهب لتقتلع خيام الأعداء ، وتمهد الطريق للملة الإسلامية ولسوف ينزل الله المطر من السماء ليغمر الأرض بالخصوبة التى تيسر الوسائل الصحيحة للحياة فى جانب ، بينما تحدث زلزلة تندثر بها مرتفعات وترتفع منحدرات فى جانب آخر .. ولسوف ينزل الله الأمن على جيشنا المسلم ، وينزل رعباً على الجيش غير المسلم عندما تدور رحى الحرب .

وبهذه الأمداد الإلهية بلغ الركب الإسلامى غاياته المنشودة فى عهده الأول ، لن يبلغها فى الوقت الحاضر إلا بعودة هذه المعونة الإلهية .

الدعوة إلى الله ضمان للنصر

ولاستحقاق هذا النصر من السماء يجب أن يتميز المسلمون بميزة واضحة هى القيام بالدعوة الإسلامية والإصلاح الذاتى وتزكية النفس . وهذه هى

المسئولية الكبرى الواقعة على أهل الإيمان .. إنها نفسها هى الشهادة على الناس التى يترجمها حديث الرسول (أنتم شهداء الله فى الأرض) ، فإن مؤهلات النصر والتمكين مرهونة بشرط القيام بمسئولية الدعوة .

إن المسلمين يعيشون اليوم وفى كل العصور مع شعوب أخرى ، حيث تهب جماعة جماعة أخرى وحيث تقوم طبقة بنشاط مكثف لتستعلى على طائفة أخرى – وإن هذا التصارع يخلق مشكلات للمسلمين ، وفى كثير من الأحيان يتعرضون لاعتداءات جماعية أخرى غير مسلمة ، وينتج عن ذلك أن ثائرة المسلمين تثور ضد شعوب أخرى عندما يجدون أنفسهم فى خطر ويريدون الجهاد ضدهم ، ولكن إذا تأملنا فى هذه المسألة من المنظور القرآنى فسوف نجد حلا مختلفاً عن الحل الذى يطرحه دعاة الثورة . فإن القرآن يعلمنا أن الأزمة مهما كانت جسيمة أو تعود بخسارة كبيرة فى الأموال والأرواح فإن حلها هو بالدعوة إلى الله ، وبالتالى ، فإن جهود المسلمين يجب أن تكون مركزة على الدعوة إلى الله ، وينبغى أن لا تكون الدنيا هى المحور الأساسى لاهتمام المسلمين وغايتهم الكبرى ، وهذا هو الدرس العظيم الذى وجه إلى الأمة الإسلامية بواسطة الرسول فى القرآن: « **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** » (المائدة : ٦٧) ، وتثبت لنا هذه الآية بكل وضوح أن سر العصمة من الناس كامن فى الدعوة إلى الله . فكلما تعرض أهل الإيمان لخطر الأمم الأخرى واستشعروا خطر الاستعباد فعليهم أن يتوجهوا مخلصين إلى الدعوة إلى الله .. فهذا هو العمل الذى ربطه الله بإرادته ووعد بأن يهيء من أجله أسباباً غير عادية تشكل سلماً ينتهى بالمسلمين إلى النجاة والفلاح .

إن الميزة التى يتفرد بها العمل فى حقل الدعوة هى أن الطبيعة تتحول إلى حليفة له بصفة دائمة ، فمهما كان الناس مختلفين على مستوى العصبية والعداء فإنه – على مستوى الطبيعة – يكون نداء الحق نداء (ضمير) لجميع الناس ، إن الدعوة إلى الحق دعوة يختفى معناها فى كل قلب ؛ وتضمه كل فطرة ، وليس دين الله وطبيعة الإنسان إلا تعبيرين لحقيقة واحدة ، فقد جبل كل إنسان على تصور خالقه فى سويداء قلبه ؛ وإن باطن كل إنسان مفطور على أن يلقى بنفسه أمام خالقه ومالكه .

وبالإضافة إلى هذه المساعدة التى تقدمها الفطرة ويقدمها النداء المختفى للضمير ، فإن ثمة مساعدة تاريخية أخرى وتتلخص هذه المساعدة فى أن جميع الأديان قد فقدت نقاءها الأصلى نتيجة تحريفات متبعيها ، وتبدلت إلى درجة فقدت معها تلك المطابقة التى وضعها الله بين الدين الحقيقى والطبيعة الإنسانية السليمة ، والنتيجة الوحيدة هى أن جميع الذين يؤمنون الآن بدين غير الإسلام ، إنما يؤمنون إيماناً تقليدياً ، وهم يقفون على أرض العصبية لا على أرض التصديق الطبيعى ، لأن التصديق الطبيعى لا يوجد عندهم على الإطلاق .

إننا إذا نجحنا فى إزاحة ستار العصبية فستقف الأديان الأخرى فى العراء ولن يكون أمام الناس سبيل إلا أن يستظلوا بشجرة الإسلام الوارفة الظلال .

أمثلة تسخير الدعوة

يكمن سر حياتنا فى الدعوة إلى الله ، وليس هذا أمراً نشازاً ، بل هو أمر يؤكده التاريخ الإسلامى تأكيداً واضحاً .

لقد بدأ النبى – صلى الله عليه وسلم – يقوم بمسئولية الدعوة فى مكة . ولكن أرض مكة بدت أرضاً جدباء لا ينبت فيها نبات ولا تلين فيها

قلوب للإسلام ، وهكذا انقرضت ثلاثة عشرة سنة دون أثر يتناسب معها حتى لقد كان يبدو أن تاريخ الإسلام سينتهى بمكة كما بدأ بها ، ولكن الأسباب أصبحت مواتية بصورة مدهشة فى المدينة ، فأزمع النبى — صلى الله عليه وسلم — وصحبه أن يهاجروا إليها ويقيموا هناك مركزاً للإسلام ..

والسؤال هنا : لماذا ظهر هذا المكان الجديد للدعوة ؟ ..

والجواب واحد : لقد ظهر هذا المكان الجديد بطريق الدعوة والتبليغ وذلك بفضل جهود بعض أصحاب النبى — صلى الله عليه وسلم — وعلى رأسهم مصعب بن عمير ، فبفضل مصعب انتشر الإسلام فى المدينة حتى جاس خلال الديار : « حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون (سيرة ابن هشام ، الجزء الثانى : ٤٧١) .

فهكذا انفتحت أبواب جديدة لنشر الإسلام فى ظروف قائمة باعثة على اليأس والقنوط .

ولئن كانت الهجرة قد وفرت للمسلمين منطقة خاصة لهم ، فإن أعداء الإسلام قد أججوا نيران الحرب من جديد ، مما أحدث للمسلمين وضعاً خطراً جداً ، وأصبح الإسلام محفوفاً بالخطر حتى كاد الأعداء يطفئون نور الله بأفواههم ، ولكن القيام بواجب الدعوة قد فتح أبواباً جديدة للإسلام مرة أخرى ، وهذه الأبواب تتمثل فى صلح الحديبية الذى كان له فضل إنهاء التنازع والتصارع والمصادمة ، فعادت الحالة هادئة طبيعية مكنت المسلمين من استئناف الدعوة مما أدى إلى مضاعفة عدد المسلمين إلى أربعة أضعاف فى فترة تقل عن سنتين ، وألقى الوضع الجديد للدولة الرعب فى قلوب زعماء قريش ، فألقوا الأسلحة عند فتح مكة دون قتال .

ولقد ظهرت بعد فتح مكة مسألة أخرى مثيلة للمسألة السابقة ، وهى مسألة ثقيف فقد كانت هذه القبيلة متمردة جداً ، وكانت تعيش فى مدينة الطائف التى كانت محاطة بالجبال ، ولذلك كان من الصعب شن الهجوم على هذه المدينة . ولم يكن الطريق الذى أخضع قبيلة ثقيف فى هذه الآونة إلا طريق الدعوة ؛ فدخلت قبيلة هوازن — التى بلغ عدد أهاليها ستة آلاف — فى الإسلام وكانت هذه القبيلة حليفة لقبيلة ثقيف ، وكان اعتناق هذه القبيلة الإسلام بطريق تأليف القلوب ، ولما اعتنق جميع أفراد قبيلة هوازن الإسلام أحست ثقيف بأن أجنحتها قد تكسرت ، ولم يبق أمام أهلها مجال إلا أن يذهبوا إلى المدينة ويعتنقوا الإسلام ، ويلتفوا حول رايته .. وهكذا كان باب الطائف مغلقاً أمام الحملة العسكرية ولكنه أصبح مفتوحاً أمام زحف الدعوة الإسلامية .

وعندما يصل التاريخ الإسلامى إلى القرن الثامن الهجرى ويجتاز مراحل مختلفة خلال هذه الفترة ويدخل (التتر) العالم الإسلامى ، نجد التتار يقيمون الدنيا ويقعدونها ويهلكون الحرث والنسل ويعملون السيوف والرماح فى أعناق عشرات الآلاف من المسلمين .

لقد خرج جنكيز خان من آسيا العظمى عام ١٣١٦ م على رأس جيش يربو على مائتى ألف جندى يشبهون الوحوش والسباع .. وقد عمل هذا الجيش على النهب والسلب والقتل ، وقد دمر جنوده العراق وإيران وتركستان ، حتى ساد العالم الإسلامى كله الفزع والهلع والخوف والروع ، وغشيه موج من الوحشة .

ومرة ثانية فى عام (١٣٥٣ م) يزحف جيش تترى آخر بقيادة حفيده هولاكو ، ذلك الذى زحف إلى العالم الإسلامى زحفاً يشبه السيل

العرم ، والذى ذهبت ضحية زحفه دول إسلامية بأكملها ، ومشت جيوش هذا الرجل فوق عشرات الألوف من المسلمين فى وقت كانت فيه هذه الدول الصغيرة تحاول رفع مجد الإسلام وعظمته فى حدود طاقتها .

ويضيف لنا المؤرخ المسلم (ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ) هذا الواقع الأليم ، والذى شهده بعينيه ، بهذه الكلمات التى يقول فيها :

« .. لو قال لك أحد إنه لم يحدث مثل ما حدث فى هذا اليوم منذ ولد آدم عليه السلام إلى يومنا فلن يكون مخطئاً » ويروى مؤرخ غربى هذا الحادث بهذه الكلمات : « لقد سقطت السماء على الأرض ، وأبادت ما كان عليها » .. « Jenghiz Khan, by Harold Lamb P. 266 » .

فى هذه اللحظة الحاسمة كانت قوة الدعوة الإسلامية هى التى أصبحت سداً ضد سيل التتار ، فبدأت قلوب التتر تتفتح على الإسلام — بعد هزيمة المسلمين العسكرية — بفضل هذه الدعوة المباركة ، حتى إن الإسلام ملك قلوبهم فاعتنق أكثرهم الإسلام ، وهكذا صاروا أمناء الإسلام وحماة المسلمين بعد أن كانوا أعدى أعدائهم ، فكيف تحقق هذا النصر يا ترى ؟ وهل كان هناك رجال يعملون على نمط النظم التبشيرية السرية ، وساهموا فى نشر الدعوة الإسلامية ؟ أم كان ذلك فقط رحمة من الله تبارك وتعالى توجهت إلى قلوب التتر فوضعت فى قلوبهم حنيناً للإسلام والمسلمين ؟ ..

إنها الدعوة والرحمة فى سياق واحد ، وإن التاريخ ليقدم لنا ما تطمئن به قلوبنا ، وما يدلنا على كثير من الجهود التى قام بها رجال الله الصالحون لجذب قلوب هؤلاء التتر إلى دعوة الإسلام ، غير أن الذى لا جدال فيه أن الانتصار على التتر لم يتحقق بالقوة العسكرية بل بفضل

قوة الدعوة الإسلامية ، فلو لم يعتنق التتر الإسلام فى تلك اللحظة الحاسمة لكان المسلمون أعجز — فى عالم القوة والأسباب والوسائل — من أن ينتصروا على التتار أو يقوموا بسد هجماتهم .

وقد اعترف المؤرخون كلهم بقوة دعوة الإسلام فيما كتبوا عن التتر ونقتبس هنا ما رواه باحثان من غير المسلمين .. يقول توماس أرنولد فى كتابه « **الدعوة إلى الإسلام** » :

T. W. Arnold, The Preaching of Islam. (1896) p. 5.

« إن المملكة الإسلامية العظيمة قد انهارت على يد التتار فى سنوات معدودة وقد انكسرت شوكة الإسلام السياسية ، ولكن استمرت غلبته الروحية ، وهى لا تزال مستمرة دون انقطاع ، ولما خربت قبائل المغول دار الإسلام وداست على مجد الخلافة العباسية ، وأراقت الدماء أنهاراً فى شوارع بغداد ، كان الإسلام قد تمكن فى جزيرة سومطرة وبدأ يدخل جزر ماليزيا رافعاً رأسه منتصراً مستولياً على قلوب أهلها ، لقد حقق الإسلام أيام انحطاطه السياسى انتصارات روحية بارزة للغاية .. فخلال فترتين انتصر الإسلام روحياً بعد أن هزم عسكرياً .. أولهما أمام القبائل التترية التى انتصرت على أهله واستولت على دياره ، وثانيتهما وقعت فى القرن الحادى عشر الميلادى حين هاجم السلاجقة الأتراك الأمم الإسلامية .

ولكن هذه القبائل السلجوقية المبغضة للإسلام والمسلمين ، والغالبة ، اعتنقت دين الإسلام طوعاً ودون إكراه . !!

يقول فيليب حتى فى كتابه « **تاريخ العرب** » :

« .. فى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى بدا أن الإسلام سوف يفقد جيويته للأبد عندما زحف رماة القبائل المغولية غير المتمدينين على

حدود بلاد المسلمين فى الشرق وواجه المسلمون من الغرب حملة الصليبيين من أعداء الإسلام ، ولكن تغيرت الأحوال والموازين فى أواخر نفس القرن عندما قذف المسلمون أعداءهم وأعداء الإسلام على الجبهة الغربية فى أمواج البحر ، وأعلن الأمير السابع من بين الأمراء التتر الأحد عشر قبول الإسلام وأمر بأن يكون الإسلام دين الدولة ، ولو أن أكثرهم يميلون إلى الديانة المسيحية وتزوج المسلمون بالنسوة المسيحيات ، فكان هذا الانتصار جديراً بأن يفتخر به أهل الإسلام وأبناؤه ، وحقق الدين الإسلامى نصراً فى معركة أخفقت فيها الأسلحة المادية ، وهو نفس الحادث الذى حدث أثناء حملة السلاجقة على المسلمين . وبعد نصف قرن من الزمان أو أقل ، بدأ « غازان » حفيد هولاكو بعد أن اعتنق الإسلام يحاول إحياء (نفس) الحضارة الإسلامية التى واجهت دماراً وخراباً بيد جده الغاشم الظالم ، وقد وقف نفسه وماله لهذا الغرض .

درس من التاريخ

وقع حادث (التتر) الذى كان بمثابة القيامة لمن شاهده بعينه فى أيام الإمام تقى الدين ابن تيمية رحمه الله (٧٣٨ هـ) فثارت حمية هذا الإمام بعد ما شاهد انتكاسة مجد الإسلام فشمر عن ساعد الجد من منطلق الحنين إلى الجهاد ودعا المسلمين فى الشام ومصر إلى الجهاد وإعلاء كلمة الله ، وأعلن أن « الحرب أنفى للحرب » فخرج فى عام ٧٠٣ هـ مع السلطان الناصر ملك مصر ثائراً على التتر إلى ساحة القتال ، وقد حقق فى الأيام الأولى من خروجه انتصاراً عسكرياً على التتر ، ولكن غلب عليهم التتر فيما بعد ، ولحق الإمام ابن تيمية بربه بعد ما عاش فى قلعة دمشق سجيناً ، وقضى أياماً من حياته فى التدريس والتأليف .

لقد كان الإمام ابن تيمية يريد الغلبة على التتر بالقوة العسكرية ، ولكن حلمه لم يتحقق عن هذا الطريق ..

وفى نفس الوقت الذى فشل فيه الطريق الحربى ظهرت قوة الدعوة الإسلامية ، وهى التى قضت على هذه المشكلة : بل حولت أعداء الإسلام إلى أحباء له ، بعد ما كانوا قد تعاهدوا على قمع جذوره ، فتجربة القرن الثامن الهجرى هذه كانت ولا تزال درساً للمسلمين يعلمهم أن الذود عن الإسلام وإعلاء كلمته هو أهم واجباتهم الأولية . وعليهم أن يعرفوا وسائل تحقيقه ، ولكن المسلمين لم ينتفعوا بهذه التجربة التى قدمها هذا الحادث التاريخى الشهير ، وهذا مما يثير الدهشة لدى كبار الباحثين ، وفى أيامنا هذه يواجه الإسلام من قبل أعدائه الجدد « تتر العصر الحديث » مشكلات وصعوبات ، فنهض زعماء المسلمين بأجمعهم ضد المهاجمين الأعداء ، وخاضوا معارك سياسية ، لكن لم يظهر فى هذه الفترة الطويلة زعيم واحد منهم يحسب الدعوة إلى الإسلام جهاداً حقيقياً ويكرس حياته لها .

الإسلام فى العصر الحديث

لقد هجم نابليون بونابرت فى عام ١٧٩٨ م على مصر والشام ، وكان التجار البرتغاليون قد دخلوا إلى الهند والدول الآسيوية الأخرى قبل ذلك بقرنين ، ثم بدأ زحف الشعوب الغربية الأخرى ..

وهكذا استولى فى القرون الأخيرة الماضية البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون والبريطانيون على العالم الإسلامى كله ، فانقرضت أولا دولة (المغول) فى شبه القارة الهندية ، ثم (الدولة العثمانية) العظيمة آخر خلافة إسلامية عالمية ..

صحيح أن الاستعمار السياسي قد انتهى فى القرن الحاضر ، ولكن الغرب — لا يزال يسيطر على دنيا الإسلام بواسطة الاستعمار التقنى ؛ فإن المسلمين يعتمدون على الدول الأوربية فى كل أساسيات حياتهم من شراء الأسلحة إلى طباعة القرآن الكريم ..

ومن المعروف أنه ما إن برزت مسألة الاستيلاء الغربى على الشرق الإسلامى حتى ظهرت فى العالم الإسلامى حركات كثيرة للدفاع عن الإسلام ولا تزال هذه الحركات باقية . وإن القوة الدافعة الأساسية التى كانت تعمل وراء هذه الحركات الإسلامية كانت مسألة طرد الاحتلال الأجنبى ، فإن هذه الحركات مهما كانت مختلفة فيما بينها ، فقد وجد بينها أمر مشترك وهو أنها كلها حركات سياسية تحمل وجهة النظر السياسية ..

وإذا أردنا جمع هذه الحركات المختلفة والمتباينة فإنه يمكن لنا جمعها تحت راية (الإيمان المطلق بالحل السياسى) للمسائل الناجمة عن الحكم الاستعمارى .

لقد ذهبت جهود هذه الحركات أدراج الرياح ، وبالرغم من التضحيات الجمة بالأموال والأرواح ، فلم يتمكن المسلمون من تحقيق النجاح حتى فى المستوى السياسى ، وهو تحقيق الوحدة السياسية العالمية بين المسلمين .

لقد بدأت حركة الاتحاد الإسلامى ، أو ما عرف بالمؤتمر الإسلامى ، كرد فعل لغروب الدولة العثمانية وسقوط دولة المغول قبلها ، وانقسام العالم الإسلامى الواسع إلى دويلات وحاميات ، وقد بذل المسلمون فى سبيل التخلص من الاستعمار السياسى الغربى دماءهم وأموالهم وأنفسهم ، ونفائسهم بسخاء ، ولكن الواقع الأليم المرير هو أن الغرب حقق سيطرته عليهم مرة أخرى بمكره ودهائه عن طريق العلم والتكنولوجيا ، بينما استنفد

المسلمون كل طاقاتهم فى سبيل الاستقلال عن الاستعمار الغربى ، ولكن عندما تحرروا من الاستعمار الأجنبى ، وجدوا أنفسهم — مرة أخرى — خاضعين وراكعين أمام عصابات الجاحدين ، والثائرين على الإسلام ، والمنكرين لفضله .

لقد ضحى المسلمون أكبر تضحية فى سبيل إقامة « دولة إسلامية » خاصة بالمسلمين ، ولكن عندما تحقق هذا الحلم ، أصبح أبناء البلد الواحد منقسمين إلى بلدان عديدة مختلفة .

لقد اتحد المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ؛ ضد إقامة دولة صهيونية فى فلسطين ، وبذلوا كل غال ورخيص ، وما كانوا يملكون شيئاً من وسائل أو أسباب لاسترجاع الأراضى المغتصبة ، وبالتالى كان لابد أن تقوم إسرائيل ، وأن توسع حدودها وطاقاتها على حساب عدد كبير من الدول العربية .

لقد فقد المسلمون كل شىء فى كل مجال من مجالات حياتهم فى هذا الزمان ، ولم يحصلوا على شىء ؛ ولكن على حد تعبير الإنجيل : (إن الأجير يجمع أجره فى كيسة مثقوبة) .

والغريب أنه فى مثل هذا الجو القاتم المثير لمشاعر اليأس والقنوط ؛ لا يزال يوجد مجال يزحف فيه الإسلام ، بينما يفشل المسلمون بالرغم من تضحياتهم وجهودهم فى المجالات الأخرى ، ولكن فى مجال الدعوة الإسلامية — ومع إهمال المسلمين لها — لا تزال النتائج مشجعة حيث بدأ المنبوذون والطبقات المستضعفة فى الهند وكثير من المفكرين الأوربيين يعتنقون الإسلام وبدأت الطبقة المثقفة اليابانية تميل إلى الإسلام بسرعة ، واتجه الشعب الأسود فى أميركا إلى اعتناق الإسلام ، وبدأت القبائل المختلفة

فى إفريقيا تلتف حول راية الإسلام زرافات ووحدانا .. كما اعتنق كثير من المثقفين فى كل بلد تقريباً الدين الإسلامى .

وكل هذا دون أن يبذل المسلمون أقل الجهد وأقل المال ..

فرص أضعناها

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وفى النصف الأول من القرن العشرين كان قادة المسلمين وزعماؤهم ينطحون رؤوسهم بصخور سياسية دون جدوى ، وخلال هذه الفترة ظهرت إلى الوجود أحداث تشير إلى أن المجال الحقيقى هو مجال الدعوة إلى الله ، وليس الأمر تصادماً أو صراعاً سياسياً مع الأمراء والولاة .. ونذكر على سبيل المثال القصة البالغة الدلالة التالية :

« كان الإمبراطور (ميكادو) اليابانى قد أرسل فى زمن وجود السيد « جمال الدين الأفغانى » بالآستانة (سنة ١٨٩١ م) كتاباً إلى السلطان عبد الحميد يذكر فيه مودته ويقول : إن كلا منا ملك شرقى ومن مصلحتنا ومصلحة شعوبنا أن نتعارف ونتزاور ، وتكون الصلات بيننا قوية تجاه الدول والشعوب الغربية التى تنظر إلينا بعين واحدة .. إنى أرى شعوب الإفرنج يرسلون إلى بلادنا دعاة لدينهم اعتماداً على الحرية الدينية عندنا ، ولا أراكم تفعلون ذلك ، فأنا أحب أن ترسلوا إلينا دعاة يدعون إلى دينكم الإسلامى ويمكن أن يكون هؤلاء صلة معنوية بيننا وبينكم »(١) .

وعندما وصلت هذه الرسالة من ملك اليابان إلى عاصمة تركيا كان السيد « جمال الدين الأفغانى » والعلماء الآخرون موجودين هناك فأراهم

---

(١) انظر محمود ابو رية : جمال الدين الأفغانى ص ٣٢ لجنة التعرف بالاســلام القاهرة .

السلطان عبد الحميد الثانى هذه الرسالة ، ولكن أحداً منهم لم يعط الرسالة الاهتمام الجدير بها ، ورجع رسول امبراطور اليابان إلى وطنه حاملا فقط رسالة من السلطان تحتوى على كلمات الامتنان الرسمية .

إن السبب الرئيسى فى عدم انتهاز هذه الفرص الذهبية إنما هو إغفال المسلمين لأهمية الدعوة ، وانكبابهم على الانشغال بالشئون السياسية ، وقد ظلوا يحسبون أن هذه الشئون هى التى يجب أن تستولى على كل اهتمامهم ، وظلوا يغضون النظر عن أهمية نشر الإسلام وتبليغ رسالته إلى غير المسلمين مع أن الشعوب كانت تأتيهم ، وتقرع أبوابهم للانتفاع بما لديهم من رسالة الإسلام الخالدة ..

من قضاء الله وقدره

اعتنق اللورد « هيدى فارق » عضو الأسرة المالكة البريطانية الإسلام فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر الميلادى ، وأعلن فى النصف الثانى من القرن العشرين رئيس دولة الجابون (الإفريقية) محمد عمر بانكو اعتناقه للإسلام ، ونشاهد فى هذا الزمان أيضاً أن الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً ، والملاحظ أن هؤلاء المسلمين الجدد ليسوا من الشعب العادى ، بل هم من طلائع رجال الطب « موريس بوكاى » والفلسفة « روجيه جارودى » والهندسة والعلوم وأصحاب المناصب العليا فى الحكومات المختلفة .

ومع حالة المسلمين التى بلغت صورة مزرية من الذل والاستعباد فى بلاد الهند ، فقد ظهرت فجأة قوة الدعوة إلى الإسلام ، وبدأت الطبقات المختلفة تقبل على الإسلام على نطاق واسع .

وهذا الوضع العجيب لا يمكن تفسيره إلا من خلال هذا الاقتباس

الذى أخذناه من مقال « كرشنادهن بزدا » من « راميشور بغرب البنغال » ، وهو المقال المنشور فى صحيفة « ريدنيس الأسبوعية الهندية » والذى يقول فيه

« إن الهندوس يعتقدون فى التناسخ والنشأة الجديدة وحقاً فلقد أعادت الهندوسية ولادتها الجديدة فى (ميناكشى فورم) بولاية (تامل نادو) فى منتصف شهر فبراير فى شكل اعتناق أبنائها الإسلام زرافات ووحدانا » .

إن وقائع دخول الإسلام التى تتكرر فى مشارق الأرض ومغاربها (بالرغم من الحالة المزرية للمسلمين) تشير إلى أن هذا هو المجال الذى ينتظر الجهود والتضحيات .. وأما المجالات الأخرى التى تبذل بعض الحركات الإسلامية فيها جهودها ، فلا قيمة لها عند الله فكأنما أحبط الله أعمالها ، بينما نرى فى المجال الذى لا جهد فيه للقيادات الإسلامية (وهو الدعوة) نتائج عالمية ، وثماراً طيبة ، فكأن الله يبين لنا أن مجالات العمل التى تجتهدون فيها ليس فيها معونة الله وإنما تتجه معونته إلى أرض خصبة إلى حد ينبت فيها نباتها حتى بغير عمل وجهد ..

ولو أن المسلمين بذلوا جهودهم فى مجال الدعوة إلى الإسلام فسوف يتضاعف الإنتاج وسوف يتحقق ذلك (الحلم) الذى يحلم به المسلمون وهو غلبة الإسلام وانتشاره .. وازدهار وضعهم الحضارى ، ولكنهم يبحثون عن تفسير (للحلم) الذى يحلمون به فى مجالات أخرى عقيمة .

الإسلام عمل وحيد

أشاد المفكر والأديب الغربى المشهور « جورج برنارد شو » (١٩٥٠) بذكر الإسلام ، حيث قال : « إذا كان هناك دين يستطيع أن يسود بريطانيا فى مائة السنة القادمة ، بل يسود أوربا كلها ، فلن يكون هذا الدين إلا الإسلام ، فإنى لأكن فى نفسى أعظم تقدير لدين محمد نظراً

لما يوجد فيه من قوة مميزة ، فهو الدين الوحيد الذى يستطيع أن يستوعب الدنيا المتغيرة ، كما يملك القدرة على جذب القلوب على مر العصور » .

وكان المفكر الهندوسى الهندى « سوامى وويكا » قد كتب، فى سنة ١٩٠٣ يقول : « إن الوحدة الحقيقية هى آخر كلمة فى عالم الدين والفكر ، وهذا هو الرأى الذى ينتهى إليه الإنسان بالنسبة لكافة الأديان ، ولكنى أرى أن الدين الذى بلغ القمة فى المساواة والحب والتعاون بين البشر إنما هو الإسلام فقط ، ولهذا فإننى أعتقد اعتقاداً جازماً أن فلسفة (الفيدا) لا قيمة لها بدون الإسلام العملى ، وأن الهند التى تمثل نقطة اتصال بين الهندوسية والإسلام يجب أن تخرج فى المستقبل القريب من الاختلافات والنزاعات حتى تصبح حصناً منيعاً محكماً » .

والواقع أن الإسلام هو الأمل الوحيد ليس للمسلمين فحسب بل للعالم كله .. إن الدنيا كلها رغم نهضتها المادية تضطرب وتتعطش للهداية الربانية ، والمسلمون مظلومون فى كل مكان ، لأنهم أهملوا أداء مسئوليتهم وغفلوا عن نشر الهداية الإلهية التى يملكونها بين الآخرين من أبناء جلدتهم .

إن الدنيا معرضة للعقوبة الإلهية بسبب حرمانها من الحق ، والمسلمون معرضون للعقوبة لإغفالهم واجب نشر الرسالة .. ولسوف تبقى هذه الحالة طالما بقى المسلمون متجاهلين مسئوليتهم ، إن الانشغال بشئون لا تمت بصلة للدعوة ، وتسمية تلك الشئون « دعوة » ليس إلاّ جريمة تضاف إلى كثير من الجرائم التى سقط فيها المسلمون .. ولسوف يحرمون بهذا الإهمال من رحمة الله سبحانه .

لقد كتبت سيدة مسيحية من استراليا فى كتابها « فهم الإسلام » تقول :

إن الملامح المجملة لدين الإسلام تدلنا على أن فيه عطاء وافراً لهذا

العالم المضطرب ، والحق أن الإسلام يبدو كنزاً غالى الثمن ، هجره المسلمون وخذلوه ، فإن حياة المسلمين تختلف تماماً عما عرفنا من مجد فى هذا الدين وأخلاقياته ، وما لم يعد المسلمون إلى حقيقة الإسلام فسيظلون متخلفين ومتخبطين فى مؤخرة ركب الإنسانية ، لأن الإسلام هو الحل الناجح والعلاج الناجع لكل داء ، وإنما هو النبراس الوحيد للمسلمين ، ليس لأنفسهم فحسب ، بل للعالم الإنسانى كله .

لقد أوضحنا فيما سبق — من خلال استعراض التاريخ — تبايغ ماأنزل الله « **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس** » (المائدة : ٦٧) ، وعندما نزلت هذه الآية ، وتلاها الرسول فإن هذه (العصمة من الناس) لم تكن قد ظهرت إلى حيز الوجود ، لقدكان هذا التاريخ مختبئاً خلف ستار المستقبل . وفى هذه الحال فإن الإيمان بهذه الكلمات وما تقتضية من وقف المنهج والأموال فى سبيل الدعوة كان أمراً فى غاية الصعوبة ، لكن دراسة التاريخ — بعد وقوعه — أسهل بكثير من عملية استكشافه واستجلائه قبل وقوعه .

إن المسلمين الذين عاشوا القرن الهجرى الأول أدوا أصعب عمل فى التاريخ .. إنهم استكنهوا الحدث قبل وقوعه ، وعملوا له حسب مقتضياته .

ومع أننا وكل إلينا أيسر عمل تاريخى بعدهم ، إذ أننا نمشى على أرض ممهدة ، وما علينا إلا أن نكرر العمل بالمبدأ الذى تحقق فى التاريخ ، أى أننا على العكس من أسلافنا الذين ساروا على درب جديدة ، ومع ذلك فإن أسلافنا نجحوا فى الامتحان الصعب المجهول وإننا فشلنا فى الامتحان السهل المكرور .

لقد وردت فى القرآن الكريم آية تقول : « **إن الله لا يهدى القوم**

الكافرين » (المائدة : ٦٧) ونحن نستطيع استجلاء جانب هام من هذه الآية موجزه أن المسلمين الذين قاموا بنشر الدين وفق طرق علمها الله لهم قد تعهد الله لهم بأن يعمى أبصار الكافرين ، حتى لا يتمكنوا من القيام بمؤامرة مؤثرة على المسلمين ، وحتى لا ينجحوا فى مسهم بسوء يقضى عليهم. وهناك جانب آخر نستجليه من هذه الآية يتصل بذات الداعى ، وهو أن المسلمين لو لم يقبلوا هذا المنهج الفكرى والعملى رغم تعهد الله لهم بالنصر ؛ وسلكوا طرقاً أخرى غير التى فرضها الله عليهم ، فإنهم لن يوفقوا فى مساعيهم ، ولن يهديهم الله للسير فى اتجاه الفلاح . وبالتالى سوف تضيع جهودهم مهما كانت كبيرة وتصبح فاقدة النتيجة .

والحق أن المسلمين فشلوا فى مساعيهم فى العصر الحديث مع أنهم لم يدخروا وسعاً فى إنهاض أنفسهم من كبوة الإغطاط ، وضحوا فى ذلك بمهجهم وأرواحهم ، ولكن ضاعت تضحياتهم ، وصدق عليهم ما ورد فى الإنجيل « تبذرون كثيراً وتحصدون قليلا ، تأكلون ولا تشبعون ، تشربون ولا يسكن الغليل ، ويجمع الأجير أجرته فى كيس ذى ثقب ، أملتم كثيراً وحصلتم قليلا وعندما رجعتم إلى البيت ضيعتم محصولكم » .

لقد بذل المسلمون الكثير فى العصر الحديث ، ولكن الله أذهب عملهم أدراج الرياح . وهذا تنبيه لهم من الله — لو عقلوا ووعوا — كى يتجهوا إلى الدعوة .. ولعلهم — قبل يوم القيامة — يعقلون .

طريق الفطرة

لقد خلق الله لكل شيء قدره ، فلا يتعدى حدوده ، ولا ينقص منه شيء .. إن الشمس والقمر والنجوم تسير على مسارها بانضباط وانتظام بالغين ، دون أن يحدث خلل للحظة واحدة .

والجنين يتكون فى بطن المرأة وينشأ وينمو رويداً رويداً ، حتى يخرج من بطنها فى شكل إنسانى كامل فى وقت معين .. وهكذا جعل الله لكل شيء قدراً « **وكل شيء عنده بمقدار** » (الرعد : ٨)

وبهذا الطريق المحكم يمكن أن يجرى سير كل شيء إلى مستقره بدون أى تصادم « **لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون** » (يس : ٤) .

وإن هذا الطريق لا يقتصر على تلك الأشياء التى تظهر فيها النتيجة بحكم الله وقدره مباشرة ، بل إن هذا الطريق ينطبق أيضاً على الأمور والأعمال الإنسانية حيث تظهر الأحداث بجهود من الإنسان .

لقد اعتاد العرب قديماً أنه إذا اشتد غضب أحدهم على زوجه يطلقها ثلاث مرات أو أكثر إلى مائة مرة ، ثم كان يخرجها من البيت مباشرة ، فكانت هذه الأحداث تسفر عن عدد من المشكلات الشخصية والعائلية ، ولكن القرآن قرر طريقاً للطلاق هو أن الإنسان إذا أراد الطلاق فعليه أن يطلق بحساب العدة ، وأن يراقب العدة باهتمام ، وعليه أن يطلق بين طهرين وشهرين متتالين ، ثم فى الطهر الثالث للشهر الثالث أن يمسك زوجته بمعروف أو يسرحها بإحسان ، فبهذا يصل حدث غير سار بالتدريج

الفطرى إلى منتهاه ، والطريق الآخر للطلاق أن المرأة إذا كانت حاملا وظهر حملها فترجأ عدة الحمل إلى وضع الحمل ، لكى يلتزم الشخص الذى سبب الحمل أن ينفق على زوجته فى بيته حتى تكمل مدة وضع الحمل.

وثمة مزايا للعمل المرسوم بالصبر والتأنى والتدرج بدلا من التسرع والاستعجال ، فربما وجد كل من الطرفين إمكانات جديدة قد تكون غير متوقعة من قبل ذلك ، وإن عملا عائلياً يسير سيره الطبيعى ليبلغ إلى منتهاه دون أن يخلق تعقيدات وملابسات عويصة لحرى بأن يصل إلى غايته بأقل الخسائر ، وبطريقة كريمة ، وإن الله ليصف هذا العمل بأنه بالغ أمره : **« ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شىء قدرا »** (الطلاق : ٣) .

فإذا اعتمد شخص على الطريق المقدر من الله ، وآمن بأنه أحسن طريق واحتمل مرارة الصبر والانتظار ، فإن الطريق يكون ممهداً للوصول إلى الغاية كما أن الالتزام بمنهج الله الذى وضعه لحياة الإنسان يراعى كافة الجوانب كاملة ، لقد قرر الله نظاماً دقيقاً صحيحاً لعمل كل شىء بعلمه المحيط والشامل لكل شىء .. ولن ينجح شخص فى هذه الدنيا التى خلقها الله عندمخالفته لهذا النظام الذى وضعه المحيط بكل شىء .

التدبير الإلهىّ الخفىّ

لقد ورد فى القرآن عند ذكر الأحداث الواقعة فى الكون قوله تعالى : **« يدبر الأمر يفصل الآيات »** (الرعد : ٢) ، فعُلم أن القرآن والكون تعبيران لحقيقة واحدة ، وما فُصِّل فى الآيات من المبادىء والحُكم جُعل أساساً لهذا الكون ، فالكون تصديق عملى للقرآن وبتعبير آخر : إن القرآن إظهارٌ لفظىٌ للحقيقة الربانية وإن بقية الكون إظهار عملىٌ لتلك الحقيقة ..

إن الله يريد أن يبنى أهل الحق بناءهم على أسس متينة فى مواجهة الباطل وأن يشيدوا صرح الدين بالتضحية بالمال والوقت وبناء شخصيتهم القوية ، لتكون راسخة وقوية لا يحطمها أعداء الله ولا ينال أحد منها ، إن الله يريد أن يرى دينه غالباً على الأرض . وإن المسئولية لتقع على عاتق أهل الإيمان لكى يقوموا بدورهم فى تحقيق ذلك بجهودهم وجهادهم وبعدتهم وعتادهم . وقد ضرب الله مثلا فى القرآن للعنكبوت فقال : « **وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت** » (العنكبوت : ٤١) .. وفى مكان آخر ضرب مثالا للحديد : « **وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد** » (الحديد : ٥٢) ، والمعروف أن بيت العنكبوت ينهار بهزة خفيفة ، وبلمسة من يد أو خشب ولكن بيت الحديد يتصدى للطوفان ويقف فى وجه الأعاصير .

ولقد أراد الله بهذين المثالين أن ينصح المسلمين أن يبنوا بيت الدين على غرار « بيت الحديد » لا مثل بيت العنكبوت .

وإن الجانب المهم للبناء الراسخ المتين هو الجانب الذى يتضح لنا من تعاليم ديننا ، وهو الاستعانة بالتدابير الخفية الإلهية فى تقويض نفوذ العدو وإقامة الحق على أسس سليمة قوية ، ولإيضاح هذا المبدأ ننقل آيتين من القرآن :

« **قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون** »(النحل : ١٦) .

والآية الثانية :

« **هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله**

من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار » (الحشر : ٢) .

ويتبين من هذه الآيات أن من حكمة الله وسنته أن تكون جذور الأعداء هشة ، و يظل هذا شأنها إلى حد القضاء عليها دون أن تشعر ، فيخر عليهم سقفهم على حين غفلة منهم .

إننا نرى أن القرآن يسوق بعض الأمثلة التى تبين طريق الله وسنته ، وإن هذه الأمثلة أمثلة رمزية ، ولكن المقصود أن ندرك منها حكمة الله ، ونعيش حياتنا معتبرين مسترشدين بهذه الآيات التى تتلى فى كل زمان ومكان .

ومن هذه الأمثلة القرآنية هذه الأرضة التى هى دودة عدوة للإنسان وهى دودة صغيرة حجماً مثل النملة ، وأقل قوة منها وهى لا تتحمل شدة الحر أو البرد ، ولا تقوى على الحياة فى هواء طلق أو فى شمس ولذلك تسير فى أنبوب أو نفق من الطين ، ولكن برغم هذا الوهن والضعف تلحق بالإنسان ضرراً كبيرا ، والسر فى ذلك أن الأرضة تعمل بصمت ودأب ولا يتنبه الإنسان لها إلا حين تكمل عملها ، وإذا كان باب غرفتك خشبياً فإن الأرضة تدخل لائذة فى جناحيه ، وتأكل الخشب بصمت ، وتترك الطلاء الجميل مثل الورق على سطح الخشب ، وفضلا عن ذلك فإن مقدار ما تأكل من خشب تملؤه بالطين ، وهكذا تأكل الأرضة الخشب كله دون أن تقف أنت على ذلك لأنها تترك السطح الظاهرى ، وتأكل من الداخل ولأنها تسد الفراغ بالطين فلا ينهار الخشب ، بل يبقى قائماً ، وعندما ينتهى الأكل يسقط الباب واهياً على الأرض .

ومن زاوية أخرى نجد مثالا للكلب ، فالكلب يريد أن يعض الإنسان ولكن قلما ينجح فى عضه والسبب أنه ينبح من بعيد عندما يرى الإنسان

وبالتالى فإن الإنسان يتنبه ويدافع عن نفسه ، وهكذا تنجح (الأرضة) فى خطتها ويفشل الكلب فى خطته . . وليس نصيب الكلب إلا النباح أما نصيب الأرضة فأكثر نجاحاً من الكلب لأن الأرضة تعمل بصمت ، واستمرار ، وأما الكلب فكثير النباح والعويل .

إن القرآن يسوق لنا هذين المثالين ليخبرنا عن طريق النجاح ويدلنا على أسباب الفشل .. ونحن نتبين من القرآن أن ميزة الإنسان هى عدم الصبر والاستعجال ، ويعتبر الاستعجال أكبر ضعف فى الإنسان ، وطريق الصواب هو — دائماً — طريق الأناة والصبر والجلد وعدم التعجل فى الوصول إلى النتيجة .

والاستعجال هو تمنى الحصول على النتيجة دون استيفاء الشروط اللازمة للحصول عليها ، فمثلا شجرة « الحور » يكتمل نموها فى مدة مائة سنة،فإذا تمنى الإنسان أن يستقر الشجر ويكتمل فى بضع سنين فإن هذا استعجال أمر لا يمكن تحقيقه فى هذه الدنيا ، لأن الله لا يغير سنته وفق هوى من يتمنى ويستعجل ويريد تغيير خطة الله الطبيعية فى هذا العالم .

إن هذا النظام محكم إلى أبعد حدود ، وليس فيه استثناء لأحد ، ومن يتعدّ حدود الله وينتهك نظامه فسيعود ذلك بالضرر عليه .

ونسوق فى هذا المقام مثلا من قصة موسى عليه السلام عندما وصل إلى صحراء سيناء مع قومه . وفرض الله على موسى عليه السلام مدة شهر واحد للعبادة على جبل الطور ووعده أن يمنحه الشريعة بعد قضاء هذه الفترة وبموجب هذا كان على موسى عليه السلام أن يصل إلى الطور فى مستهل شهر ذى القعدة ولكن موسى عليه السلام وصل قبل الموعد بعشرة أيام فسأل الله تعالى موسى عليه السلام :

« ما أعجلك عن قومك يا موسى ؟ قال هم أولاء على أثرى وعجلت إليك رب لترضى . قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامرى » (طه : ٨٣ — ٨٥) .

لقد كان موسى عليه السلام مشتاقاً لأن يصل سريعاً إلى الطور ، ففوض مسئولية رعاية بنى إسرائيل إلى أخيه هارون ، ووصل إلى الجبل قبل الموعد بعشرة أيام . ولا شك أن هذا العمل كان دافعه الحصول على رضى الله ولكن ذلك ألحق الضرر بقومه ، وقد كان موسى عليه السلام قائداً ومرشداً لقومه . ولم يكن لهارون عليه السلام حتى ذلك الوقت هيمنة على القوم ، ولم يستقر أمره عليهم بعد ، فعندما غادر موسى عليه السلام إلى الجبل استطار شرّ المفسدين من القوم ، وسيطروا وقادوا بنى إسرائيل إلى عبادة العجل ، فكان هذا الاستعجال سبباً فيما ظهر من بنى إسرائيل رغم أن دافعه التقرب إلى الله . ومع ذلك فإن الله لم يفعل ما كان يحرص عليه موسى عليه السلام ، ولم يمنحه الألواح قبل الميعاد ، ولم يكن بوسع موسى بالرغم من الإخلاص وحسن النية إلا أن ينتظر المدة المقررة ، مع ما تحمله من ثمن استعجاله ومخالفته لطبائع الأمور .

منهج الإصلاح التدريجى

لقد بعث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بنظامه لتحقيق السعادة والفلاح للإنسان .. وبالتالى كان لابد من تحريم الخمر .

ولكن النبى — صلى الله عليه وسلم — لم يمنع الناس عن الخمر مدة تقترب من نصف السنوات التى كانت بعد البعثة ..

لقد ترك الناس على حالهم . فقد كان صلى الله عليه وسلم فى أول الأمر يهذب الطبائع بذكر الله وتوحيده والإنذار بالآخرة .

وبعد هذه المدة نزلت الآية الأولى عن الخمر ، فتحدثت عن كراهية الخمر وما فيها من آثام ومنافع ، لكي تستعد الأذهان لقبول التحريم : **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما »** ..

إثر هذا بدأ بعض ذوى العقول يفكرون فى تحريمها وذهبوا يتساءلون عنه .ولم يكن قد نزل إلى ذلك الوقت الحكم البات الصريح بالتحريم .

ثم نزل حكم آخر عن الخمر فى العام الرابع للهجرة ولكن لم يكن ذلك من قبيل النهى الواضح ، بل كان يتضح من البيان أن الخمر ليست بشيء مستحسن ، كما كانت تفرض القيود على تعاطيها فى أوقات الصلاة : **« ياأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون »** (النساء : ٤٣) . وبعد هذا الحكم بمدة قصيرة نزلت حرمة الخمر فى القرآن

« يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » (المائدة : ٩١) .

لقد أضحت العقول مهيأة لهذا الحكم ، فما إن نزلت هذه الآية حتى أعلن الناس : « انتهينا ربنا انتهينا ربنا » وأسالوا أوعية الخمور على الأرض. روت عائشة رضى الله عنها عن حكمة التدريج التى اتخذت فى حرمة الخمر فقالت : إنما نزل أول ما نزل سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام ، نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول ما نزل لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً .. ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبداً (ورد فى البخارى) .

الإقدام بعد الاستحكام

من أهم الأهداف التي بُعِثَ لأجلها رسول الله صلى الله عليه وسلم في العرب تطهيرُ الحرم من كافة الأوشاب والأدناس من الشرك ، وإعادته إلى مركز التوحيد الذي كان أيام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

فعندما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عدد الأصنام ثلاثمائة وستين صنماً ، وكانت هذه الأصنام موضوعة في الكعبة ، وكان المشركون يطوفون الكعبة عراة ، وقد غيّروا أيام الحج ، وابتدعوا (النسيء) لهذا الغرض . وفي وسط هذا عاش النبي صلى الله عليه وسلم (١٣ سنة) تقريباً في مكة ، ولكن لم ينهض أبداً لكسر الأصنام ، ولم يقم وأصحابه بمظاهرات احتجاجية في طرق مكة ضد هذه الأصنام ، بل ظل يدعو إلى التوحيد والآخرة ، وامتنع عن اتخاذ أية خطوة عملية ضد الأصنام .

ويظهر من الوثائق التاريخية أنه عندما تم فتح مكة في عام (٨ هـ) وتولى رسول الله صلى الله عليه وسلم السلطنة في مركز العرب ومعقله (أم القرى) ودخل مكة جالساً على متن الإبل ، بدأ يطوف الكعبة فكان حوله ٣٦٠ صنما ، وكانت بيده جريدة من شجرة فبدأ يضرب كل صنم بالجريدة حتى سقط كل صنم من الأصنام على وجهه على الأرض ثم طُرِحت جميع هذه الأصنام ، وعندما كان يفعل ذلك يردد بلسانه هذه الآية « **جاء الحق وزهق الباطلُ إن الباطلَ كان زهوقاً** » (الإسراء ٨١)

إن تطهير الحرم من الأصنام كان مطلوباً من اليوم الأول ، ولكن لم يمس الرسول هذه الأصنام قبل الوصول إلى القوة المتدرجة ، والحصول على السلطة ، وقد ركز كل انتباهه على إثبات التوحيد والدعوة إلى الآخرة ولم يقم بعمل التطهير الفعلي إلا بعد أن سيطر على مكة على الوجه الأتم ولم يبق هناك من يقاومه في هذا العمل .

اتخاذ طريق الحكمة رغم السلطة والقوة

عندما بعث النبي صلى الله عليه وسلم كان العرب يطوفون حول الكعبة عُراة ويرون أنّ الكعبة أقدس مكان على وجه الأرض ، فيجب على الإنسان الطواف حوله متخلياً عن جميع الحواجز حتى من الثياب .. كان ذلك عيباً كبيراً يكرهه النبي صلى الله عليه وسلم أشد الكره ، وقد أقام (١٣ سنة) فى مكة بعد البعثة ولم يحتج على ذلك .. وفى أخريات أيام إقامته بمكة عندما بلغ عدد أتباعه مائة مسلم كان بإمكانه أن يتخذ من هذه العادة السيئة قضية ويقوم بمظاهرة ، ولكنه لم يفعل ذلك ، وامتنع عن اتخاذ مثل هذه الإجراءات امتناعاً كاملا .

ثم مضت الأيام وحرك الله التاريخ نحو الأفضل حتى تم فتح مكة فى عام (٨ هـ) وقد كانت مكة مركزاً قيادياً للأقطار العربية حين ذاك ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يتخذ أية خطوة لمنع طواف العراة حول الكعبة . وعندما جاء موسم الحج بعد فتح مكة بأربعة أشهر ، حج المشركون على سنتهم عراة ، ولكنه لم يفرض الحظر عليهم فى هذا العام أيضاً بل حج المسلمون على طريقتهم ، والمشركون على طريقتهم .

ثم حلّ موسم الحج فى العام التالى ، وكان ثانى حج بعد قيام الدولة الإسلامية فى العرب (وقلعتها مكة) ، ولم يمنع النبي صلى الله عليه وسلم المشركين عن عادتهم السيئة هذه المرة أيضاً ، بل حج المسلمون على طريقتهم ، وكان أميرهم فى هذا الحج أبو بكر رضى الله عنه ، وحج المشركون على طريقتهم ، ولكن فى السنة التالية قبيل موسم الحج بعث النبي صلى الله عليه وسلم علياً رضى الله عنه إلى مكة وعلّمه أن يُعلن فى الحج أنه لا يقصد أحد من المشركين الحج بعد عامهم هذا ، ولا يطوفنّ أحدٌ عارياً حول الكعبة (لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان)

وهكذا لم يذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم رغم فتح مكة إلى مكة للحج فى عام (٨ و ٩ هـ) وقال : (إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك) — تفسير ابن كثير — سورة التوبة ، إنه تحمل الحج بطريقة المشركين بعد فتح مكة عامين ولم يحج بنفسه حتى فرض الحظر فى العام الثالث من الفتح سنة (١٠ هـ) ، ثم سافر إلى مكة ، وأرسى مناسك الحج ، وكان ذلك آخر حج لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الذى يُدعى « بحجة الوداع » .

ضرورة التغيير بطريقة طبيعية

لقد أنشأ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام نظاماً للحج بعد بناء الكعبة وكان ذلك النظام مرتباً على التقويم القمرى ، ولذلك كان يأتى فى مواسم مختلفة ، أحياناً فى الشتاء وأحياناً فى الصيف ، ورأى أهل مكة بعد ذلك أن هذا الاختلاف والتغيير فى مواسم الحج يلحق بهم ضرراً تجارياً ، وجعل أهل العرب من الحج مكسباً ومرتزقاً لهم ، وكان ذلك مصدر رفاهية وهناء لهم بالطبع ، ولكن اختلاف مواسم الحج كان عقبة فى طريق انتعاش معيشتهم .. وسبب ذلك أن النخلة فى العرب تصبح يانعة فى أيام الصيف وتكون مصدر رخاء لهم تزدهر بها التجارة وتنتعش المعيشة ويزداد نشاط الحل والترحال ، ولذلك يكون الحج فى موسم الصيف رابحاً وباعثاً على التحسن المعيشى ، وعلى العكس من ذلك ، فإن الحج فى الشتاء تبور فيه التجارة ، وقد غلبت المصالح الدنيوية على المصالح الدينية لدى أهل مكة فالجأوا إلى طريق النسىء « Intercolition » الذى اقتبسوه من اليهود والنصارى ، فأدخلوا التعديل على النظام الزمانى الدينى وحولوا الحج إلى التقويم الشمسى .

والمعروف أن التقويم الشمسى يختلف عن التقويم القمرى بزيادة أحد عشر يوماً ، فلجعل التقويم القمرى معادلا للتقويم الشمسى أخذ أهل مكة يزيدون أياماً فيه حتى يتعادل التقويمان ، ويترتب على ذلك زيادة ثلاثة أشهر بعد كل ثمانى سنوات فى التقويم القمرى . فكأن شهراً أرجىء (أنسىء) بعد كل ثلاث سنوات . ويدخل هذا التغيير فى الأشهر الحرام بما فيها شهر ذى الحجة . فكانت الأشهر تتغير كل ٣٣ سنة وكذلك كانت تتغير مواسم الحج تبعاً لها ، ثم بعد دوران ٣٣ سنة تعود الأشهر إلى مكانتها الأولى ، ولما ظهر الرسول كان من مسئوليته صلى الله عليه وسلم أن يبدّل هذا المرسوم الجاهلى ويقرر أيام الحج فى ذى الحجة بالتقويم القمرى جرياً على سنة إبراهيم عليه السلام ، وعندما تم فتح مكة وقوى مركز الرسول كان بإمكانه أن يغير هذا المرسوم فوراً ويعلن إلغائه ، ولكنه لم يفعل ذلك .

لقد كان الحج فى عام (٨ و ٩ هـ) يصادف ذا القعدة وفق المرسوم الجاهلى ، وكان يصادف حج عام (١٠ هـ) بعد مضى ٣٣ عاماً شهر ذى الحجة ، ولو كان يريد تغيير الرسم فورا لأعلن بعد فتح مكة بأن الحج فى العام المقبل يكون فى ذى الحجة طبقاً لسنة إبراهيم عليه السلام ، وليس فى ذى القعدة ، ولكنه لم يتعجل بل انتظر عامين . وحتى بعد الحصول على السلطة صبر على حج الناس فى ذى القعدة عامين متتاليين حتى لا يحدث ارتباك . ولكنه فى العام الثالث عندما صادف موسم الحج شهر ذى الحجة (بطريق طبيعى) أعلن أن الحج سيبقى دوماً فى ذى الحجة فقال فى خطبته فى حجة الوداع فى العام العاشر للهجرة . :

« إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » .

---

(١) ينظر تفسير ابن كثير !!

الإصلاح بدون هدم العرف المتبع

من غزوات النبي صلى الله عليه وسلم غزوة تُدعى المريسيع أو غزوة بني المصطلق ، وقد وقعت فى عام (٥ هـ) فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن حارث بن أبي ضراو رئيس قبيلة بنى المصطلق عبأ جيشاً ، وينوى القيام بحملة على المدينة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة بن حصيب الأسلمى للاستخبار فأيّد الخبر ، فعبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً وبادر بالحملة عليهم فلم يقدروا على المقاومة وقتل منهم عشرة أشخاص وأسر الرجال و النساء والأطفال وحصل المسلمون من الغنيمة على ألفى رأس من الإبل وخمسة آلاف رأس من الغنم ..

وكان الذين أسروا ينتمون إلى مائتى أسرة ، وكان رسول الله ﷺ يريد استمالتهم إلى الإسلام بالإحسان إليهم ، ولكنه لا يريد ذلك بكسر العرف والعادة ، وكان هؤلاء الأسرى ملكاً لرجال الجيش حسب العرف المتبع والتقليد ، ولو أعلن حريتهم لكان ذلك تحطيما للتقليد الشائع والعرف المتبع .. فلهذا دبر تدبيراً حكيما ناجحاً وهادئاً .

لقد كان من بين أسرى هذه الحرب بنت رئيس القبيلة (الحارث ابن أبى ضرار) وتسمى جويرية وكانت أرمل ، وعند تقسيم الغنائم نالها (ثابت بن قيس الأنصارى) وأراد ثابت بن قيس أن يكاتبها إذا دفعت مبلغاً معيناً فيمكن به عتقها ، فجاءت جويرية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وطلبت معونة منه لأداء ثمن المكاتبة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هل أدلك على أمر خير من هذا وهو أن أدفع المال وأتزوجك بعد العتق ؟ فقبلت هذا العرض .

وبهذا تحررت جويرية وزوّجت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،

ولما كانت بنت رئيس القبيلة فقد أصبح رسول الله صهراً لجميع رجال القبيلة جرياً على العرف القبلي ، ولما علم المهاجرون والأنصار بأمر علاقة المصاهرة شق عليهم أن يبقوا رجال القبائل عبيداً لهم ، فأعتقوهم وأصبحت قلوب رجال بني المصطلق بسبب هذه المعاملة والمصاهرة لينة عن ذي قبل ، وفي ضوء هذا السلوك الحسن الذي لا يوجد له نظير في النظام القبائلي تأثروا كثيراً ، ودخلوا زرافات في دين الله .. ولذلك قالت عائشة — رضي الله عنها — عن جويرية : « ما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها » .

الحركات المعاصرة

لقد قام المسلمون في هذا العصر بحركات عديدة لإحياء الإسلام .

ولقد لقيت كثير من هذه الحركات قبولا وشعبية من جماهير المسلمين غير أن هذه الحركات لم تنجح في تحقيق الأماني المنشودة ، والسبب في هذا الفشل أن هذه الحركات لم تعتمد منهج الفطرة الطبيعي ، ولم يتبعوا سنة الله التي تقررت لكل عمل ، والتي نجد نماذجها موجودة في الكون ، بل اتخذت بعض هذه الحركات طريق الفوضى والصخب وإحداث القلاقل والبلبلة ، ولم تتخذ طريق العمل الصامت الدءوب ، وقد أرادوها قفزة كبيرة ليصلوا إلى الغاية بين عشية وضحاها ، ولم يسيروا سيراً طبيعياً متأنياً ، ولم يتبينوا طريق الدربة والتأني ورباطة الجأش ، بل عمدوا إلى التسرع والتعجيل ، فقاموا بأعمال كبيرة قبل أن يدعموا مواقفهم ، وتحركوا بالعواطف الملتهبة بدلا من الحكمة والتعقل ، ولم يشيدوا أساسهم ، بل بدأوا ببناء الصرح الأعلى ، ولم يلتزموا بالتدرج من القليل إلى الكثير ، بل أرادوا إحراز الكثير من أول يوم من عملهم ، وقد ترتب على ذلك كله أنهم فشلوا فشلا ذريعاً في جميع حركاتهم .

وبداهة فإنه لا يمكن النجاح فى هذه الدنيا دون السير على طريق سنة الله . وأى مسار آخر لن يصل بالإنسان إلى الهدف الصحيح ، فإذا كان الله قد جعل سر الفلاح والنجاح فى الصبر ، فلا يمكن الفلاح والنجاح بالاستعجال والوثوب السريع ، وإذا قرر الله الفوز فى العمل الدائب المستمر الصامت فلا يمكن الفوز اعتماداً على رنة الخطب والكلمات المطنطنة: وإذا عين الله فترة خاصة للجهود فلا يمكن الوصول إلى المراد قبل إكمال هذه الفترة . وإذا أقر الله مبدأ التدرج لعمل بالغ الأهمية ، فلا يكون بلوغه بقفزة كبيرة ، وإذا شاء الله أن لا يتخذ المرء خطوة كبيرة بدون التمكن الذاتى ، فلا يمكن إحراز الهدف باتخاذ خطوات عاجلة طائشة ، وإذا أراد الله حل مسائل هذه الدنيا عن طريق العمل الجدى ، فلا يكون تسويتها بإلهاب العواطف ، وإن فيض الله سر الإصلاح فى بناء الشخصية وتقويم السلوك ، فلا تمكن إذن البلوغ إلى هدف الإصلاح بإحداث الثورات والانقلابات الاجتماعية .

هذه هى سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

الإسلام والعلم الحديث

ذات يوم قابلني شخص حصل على شهادة عالية فى العلوم وكان له إلمام بالدراسات الدينية والتاريخ أيضاً ،ولم يكن يعترف بالدين وبوجود خالق هذا الكون ، وأثناء الحوار سألنى قائلا : إذا حذف الإسلام من التاريخ الإنسانى فهل ينقص شىء ؟ .. فقلت : « سينقصه ما كان ينقصه قبل عهده بالإسلام » .

لقد عمر الإنسان هذه الأرض منذ آلاف السنين غير أن التاريخ المعلوم يشهد أن الإنسان لم يبلغ ما نعنيه بكلمة « العلوم الطبيعية » إلا بعد ظهور الإسلام ، فما هو تحليل هذه الظاهرة ؟ .

إن التحليل بسيط جداً ، وهو أن الشرك كان غالباً على الإنسان فى كل زمان قبل الإسلام ، وكان أكبر عائق فى سبيل استيطان عالم الطبيعة وبهذا الشرك أصبحت المظاهر الطبيعية آلهة تعبد ، وما كان للعلوم الطبيعية أن تبرز إلى حيز الوجود وتبلغ المستوى الذى بلغته فى العصر الحديث إلا باعتبار هذه المظاهر الطبيعية أولا مواضيع تدرس وتبحث فتسخر لخدمة الإنسان ، فالإنسان المشرك يعتبر القمر معبوداً .. فكيف يجترىء على أن يطأه بقدميه ؟ والإنسان المشرك ينظر إلى السيول على أنها قوة تستحق العبادة فكيف له أن يفكر فى توليد الكهرباء منها بعد تسخيرها ؟ هذا هو الإسلام الذى أخضع الشرك وأعطى فكرة التوحيد مكانة أسنى لأول مرة فى التاريخ الذى يعرفه الإنسان.

وقد نشر الإسلام الفكرة القائلة بأن الله واحد لا شريك له ، فكل شىء ما عداه مخلوق وحادث ، وبذلك مهد الإسلام طريق (تقصى

الحقائق) وإدراك عالم الطبيعة ، وكشف الغطاء عن أسراره ، وبالتالى انتصر الإنسان على الطبيعة ، وكانت هذه نقطة انطلاق لجميع التطورات والاختراعات والصور المختلفة للتقدم ، فمما لا شك فيه أن التخلف الحضارى والتردى العلمى كانا من نتاج الشرك ، ولولا التوحيد لما بلغت الحضارة مابلغته الآن فى العلوم والتكنولوجية ، فالفضل عائد إلى التوحيد بصفة غير مباشرة ، هذا .. ومن البديهى أن الإسلام لا يستهدف أساساً تزويد الناس بالعلوم الطبيعية ، غير أن الإنسان سار على درب العلوم بظهور الإسلام ، وقبل ظهور الإسلام لم يكن قد سار قط على هذا الدرب .

وقد اعترف المؤرخ البريطانى الشهير أرنولد توينبى (١٨٨٩ — ١٩٧٥) بهذا وسجله بوضوح فى كتابه « موجز دراسة التاريخ » ، فقال :

« .. إن إحدى نتائج الثورة الفكرية التى برزت إلى حيز الوجود على أساس (التوحيد) أن الإنسان بدأ يلقى نظرة على عالم الطبيعة على أساس أنها مخلوق ، وأن له حق أن يعلمه ويسخره ، وانطلقت هذه الفكرة فى العهد الأموى ؟(٦٦١— ٧٥٠) — أولا — فى دمشق ، ولقد كانت الكيمياء عند حكماء اليونان عملية استخراج الذهب من الفضة وهى عملية لا أساس لها بينما كان « خالد بن يزيد بن معاوية » أول شخص نمىّ علم الكيمياء كعلم طبيعى وتطور هذا العلم فى بغداد أكثر فأكثر فى العهد العباسى ، وانتشر فى أسبانيا وصقلية ، وفاق المسلمون فى هذا العهد جميع الشعوب والأمم فى التقدم العلمى والحضارى .

ويصف المؤرخون الغربيون هذا العهد بأنه كان من القرون المظلمة ولكن هذا العهد كان مظلماً بالنسبة لأوربا فقط لا للمسلمين .. » .
هذا ما قاله أرنولد توينبى ..

ويقول صاحب مقال « العصور الوسطى » المنشور فى دائرة المعارف العالمية : (لا ينطبق مصطلح القرون المظلمة أو العصور الوسطى على الحضارة الإسلامية الرائعة التى كانت منتشرة حينذاك فى شمال إفريقيا وأسبانيا)

ولكن .. كيف كان الشرك يعوق سبيل البحث العلمي ؟

إننا نضرب مثلا توضيحياً هنا .. لقد قدمت نظريتان فى اليونان القديم عن دوران الأرض والشمس ، إحداهما كانت نظرية « أرستاركس » والتى تفترض دوران الأرض حول الشمس ، والأخرى كانت « نظرية تالى» والتى تقول إن الشمس تدور حول الأرض ، وكانت الأرض بناء على النظرية الأولى مُدوَّرة ، وبناء على النظرية الثانية بيضاوية . . ولما اعتنق قسطنطين (٢٧٢ — ٣٧٣ م) المسيحية ، وانتشرت المسيحية بواسطته وحظيت بالقوة الغالبة ، احتضنت المسيحية « نظرية تالى » وأولتها بالرعاية والإشراف ، بينما حاول الكهنة إخفاء النظرية الأخرى ، والسبب فى ذلك أن المسيحية كانت قد جعلت من المسيح إلهاً ، ولد ونشأ على الكرة الأرضية فبتلك العقيدة أصبحت الأرض مسقط رأس (الآلهة) وأصبحت الأرض بالتالى (مقدسة) فأنى لها أن تكون تابعة لكوكب آخر ؟؟ ..

وقد نتج عن ذلك أن البحوث العلمية أصيبت بالركود والجمود (راجع تفاصيل هذا الصراع بين العلم ودين الشرك فى كتاب « دريبر » ١٨١١ — ١٨٨٣ م « الصراع بين العلم والدين ») .

لقد أنشىء بيت الحكمة فى عهد الخليفة المأمون العباسى (٧٨٦ — ٨٣٣ م) وقام بترجمة كلتا النظريتين فى عهده ، وقد فحص المسلمون هاتين النظريتين دون أى ضغط عقائدى ، فرأوا أن النظرية الأولى هى أقرب إلى الحقيقة . وكان الخليفة المأمون العباسى نفسه عالماً كبيراً فشعر

بخطورة هذا الإثبات ، فأمر علماء الفلك والجغرافية أن يبحثوا عن محيط كرة الأرض ، مفترضين أن الأرض مُدوَّرة ، ثم قدروا قطر الأرض بكامله بمساحة « درجة أرضية واحدة » فى ميدان فسيح ؛ ولم تكن حينذاك فى حيازة المسلمين إلا آلات بسيطة من الأصطرلابات والساعة الشمسية لتقدير الزوايا .

ولقد انتخب لذلك ميدان مسطح « بسنجار » وبدأت عملية المساحة الميدانية بإقامة زاوية على ارتفاع القطب الشمالى .. وبالمضى قدماً إلى الشمال بمسافة ⅔ و ٥٦ ميل زاد الطول درجة واحدة فى زاوية ارتفاع القطب الشمالى ومن ثم علم أن مسافة درجة من سطح الأرض تبلغ ⅔ و ٥٦ ميلا ، فلابد أن يكون قطر الأرض (عشرين ألف ميل) ، وأعيدت هذه التجارب فى مختلف الأماكن فلم تسفر إلا عن نتيجة مماثلة ..

والعجيب أن هذه المسافة كانت أقرب إلى الصحة بدرجة تحار فيها الألباب ، لأن المساحة الصحيحة فى هذا العصر — مع كل التقدم فى الآلات — تقول إن قطر الأرض على خط الاستواء يبلغ ٢٠ ألف ميل (راجع : تفاصيل التقدم العلمى للمسلمين فى كتاب « تاريخ العرب » صفحة ٣٧٥ لمؤلفه « فيليب حتى ») .

انفصال العالم عن العالم الإسلامى

كان المسلمون يسايرون موكب العالم ويحملون رايته حتى انقرض نظام الخلافة العربية بسبب خلافات سرت فى المجتمع الإسلامى ، فحمل راية الإسلام الأتراك العثمانيون . فانتقل مركز ثقل القوة السياسية الإسلامية فى القرن السادس عشر الميلادى من العرب إلى تركيا . فكان ذلك حدثاً غير مجرى التاريخ . وحول الأحداث إلى نهج جديد .

ومن المعروف أن التاريخ حافل بالأحداث العجيبة ، فقد يحدث أن يقوم شخص بإسداء خدمة مفيدة من ناحية ، ويقدم مصيبة من ناحية أخرى فى الوقت نفسه . ومثال هذا النموذج الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك الذى يرجع إليه الفضل فى إضافة خليفة راشدى إلى سلسلة الخلفاء الراشدين وهو (عمر بن عبد العزيز) ، لكن التاريخ يسجل فى ترجمة هذا الخليفة أنه شل قوة القائدين الكبيرين فى الجيش الإسلامى فى عهده ، فبذلك توقف السيل الجارف الإسلامى فى قارتى آسيا وإفريقيا .

وبالنسبة للأتراك العثمانيين فلا شك أنهم حملوا راية الإسلام التى كانت قد أشرفت على السقوط ، وجعلوا من أنفسهم حصناً منيعاً للإسلام ضد القوى المسيحية الأوربية ، ففى هذا الإطار تستحق خدماتهم أن تذكر وتشكر ، ولكن هؤلاء الأتراك هم الذين أصبحوا سبباً فى توقف البحوث العلمية فى العالم الإسلامى . وفى انتقال المركز العلمى من العرب إلى أوربا .

لقد كان الأتراك بواسل وشجعاناً وأصحاب عزيمة ، ولكن كانت تنقصهم الميزة العلمية ، فلم يدركوا أهمية الدراسات والأبحاث العلمية ، بل كانوا يحسبونها خطراً عليهم ، فيظنون أن انتشار العلم سيقلل من ولاء الشعب ، فيصعب كبح جماحه ، ولذلك أصبحوا يعادون الأعمال العلمية ، ومع تغير المركز السياسى العربى نزح علماء كثيرون من بغداد إلى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية ، وبينما كان الخلفاء العباسيون يضعون العلماء موضع الإجلال والتقدير ويغدقون عليهم الأموال — كان الأتراك على العكس — ينكرونهم ويستكرون عملهم ويحسبونهم وبالا عليهم ، فثبطوا هممهم ، وضيقوا الخناق عليهم حتى أظلمت عليهم الدنيا ، ولم يجدوا بريق الأمل فى مستقبل كريم ، فنزحوا إلى الديار الفرنسية والإيطالية ، ومن ثم انتقلت الأعمال العلمية من عالم الإسلام إلى الغرب (راجع تفاصيل هذه القصة المؤلمة فى كتاب محمد كرد على « تاريخ الحضارة العربية ») .

وقد استقبل الغرب هؤلاء العلماء المسلمين برحابة صدر ، فبعد أن فشل الأوربيون فشلا ذريعاً فى الحروب الصليبية بسبب طول باع المسلمين فى العلوم ، إذ كانت الجيوش الصليبية فى هذه الحروب أول الأمر تستعمل النار اليونانية « Greek Fire » ومنى المسلمون منها بخسائر فادحة فى الأرواح والأموال ، وكانت هذه النار اليونانية مثل (القطارة » التى تملأ بالمواد الكيماوية المتفجرة .. لكن العلماء المسلمين اخترعوا سلاحاً آخر استعمل فيه « الزيت المعدنى » فكان أكثر قوة وضراوة من النار اليونانية .

وقد رغب المسيحيون أشد الرغبة فى إزالة تخلفهم العلمى ، حتى أصبح ذلك شغلهم الشاغل ، فلما أقبل العلماء المسلمون إليهم استقبلوهم ببالغ الحفاوة وأجنوهم كل الإجلال والإكبار ، كأنهم يرتقبون هذه الفرصة ، فعزموا أن لا تفوتهم الفرصة هذه المرة . . فأصبحت أوربا مركزاً كبيراً للاختبارات والدراسات العلمية . وبلغت النشاطات العلمية درجة تعذر نظيرها ـ قبل ، فبجهود مضنية جرت فى ظرف ثلاثة قرون ظهرت ثورة فى أوربا نسميها بالإحياء العلمى الصناعى (راجع قصة إسهام المسلمين فى النهضة الأوربية فى كتاب بريفالت « بناء الإنسانية ») .

لقد احتل المسلمون مكانة الأستاذية فى العلم حتى القرن السادس عشر ثم أتى عليهم حين من الدهر لم يكونوا إلا متطفلين على مائدة الغرب ، وسبقتهم أوربا بقرون فى ميدان التقدم والنهضة العلمية . فأفلتت قيادة العلم والعالم من أيدى المسلمين ولكن حتى بعد هذه السقطة . كان عليهم أن يعودوا إلى حضارتهم العلمية ليستعيدوا مجدهم التليد وينتفعوا مما أنجزت أوربا من إنجازات علمية نادرة ، عملا بهذا الحديث الشريف : « الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق الناس بها » .. وحتى يبنوا قصر العظمة من جديد على أنقاض (العظمة الأولى) . . ولكنهم لم يفعلوا ذلك لسببين :

أولا : ابتعد المسلمون عن العلوم الطبيعية لعدة قرون ، ثم عادت هذه العلوم إلى المسلمين بواسطة أوربا فى صور استعمارية مروعة ، من استبداد إلى جوع ، إلى استيلاء سياسى على بلادهم ، وقد تقدم بهذه العلوم إليهم أناس انتزعوا الحكم والسلطة من أيديهم ، وأساءوا إلى حضارتهم ودينهم فلم يستطع المسلمون أن يعرفوا الفارق بين العلوم الغربية والعلوم السياسية ، فحسبوا أنه لا فرق بينهما ، فناصبوا العلوم الغربية العداء ، كما ناصبوا الأمم الغربية العداء أيضاً ، فبعد أن أقبلت الأمم الأخرى على هذه العلوم أبعد المسلمون عنها ، وفروا منها فكانت النتيجة أن أصبح المسلمون متأخرين بقرن واحد على الأقل عن الأمم الأخرى ، فأنى لهم أن يقودوها فى العلم ...

ثانياً : ومما زاد الطين بلة أن الأشخاص الذين أفاقوا بعد سبات طويل ، ودعوا المسلمين إلى الحصول على العلم لم يكونوا أكفاء ، بل إنهم حاولوا إنجاز هذا العمل الصحيح بطريقة خاطئة : فلم ينالوا قبولا يستحقونه فى الحقيقة بين أوساط المسلمين . فمثلا للتأكيد على العلم الجديد قالوا إن كلمة العلم أينما ذكرت فى القرآن إنما تعنى « العلوم الطبيعية » التى يقوم الأساتذة بتدريسها فى الكليات والجامعات ، وكان هذا برهاناً خاطئاً استعمل لمقصد صحيح ، إذ أن الواقع هو أن العلم الذى ذكرت فضيلته فى القرآن والحديث إنما هو « علم الدين » لا العلوم الطبيعية . لكن — مع ذلك — يتحتم على المسلمين إحراز السبق فى هذه العلوم الطبيعية ، ولكن أهميتها تثبت من (آية القوة) لا من (آية العلم) ، فلقد ورد فى القرآن الأمر بالحصول على هذه القوة لإرهاب أعداء الله وأعداء المسلمين وقد احتلت العلوم الطبيعية فى العصر الحديث مكان هذه القوة ، فيتحتم على المسلمين إحراز هذه العلوم أيضاً ، ولا يمكن للمسلمين أن يكونوا

قوة مرهبة فى هذا العصر دون الاضطلاع بهذه العلوم وعلوّ كعبهم فيها ، فإن آية القوة المرهبة : « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** » إنما تنطوى على أمر تعلم هذه العلوم كوسيلة لتقوية الإسلام والمسلمين فى هذا الزمان .

وبسبب هذه الخطيئة التى اقترفها المصلحون من المسلمين فى حقل التعليم — أصبحت طوائف من الأمه تحاربهم ! !

ولقد ورد فى الحديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم) واتفق العلماء على أن معنى مثل هذه النصوص هو علم الكتاب والسنة ولكنّ هؤلاء المصلحين طبقوا هذه النصوص على العلوم العصرية فخشى هؤلاء العاماء على الإسلام ، فرأوا فى مثل هذه التصريحات تحريفاً فى الدين فخالفوا العلوم العصرية . . وفى الواقع إن المصلحين فى مجال التعليم لم يكونوا على جادة الصواب ، وقد أخطأ علماء الدين فى أنهم لم يفرقوا بين صحة المقصد وصحة الاستدلال ، ولو تفطنوا إلى ذلك لقاموا بإصلاح الاستدلال ولم يخالفوا المقصد .

موقف الإسلام من العلوم

يعلّق الإسلام بالغ الأهمية على العلوم الطبيعية لأسباب كثيرة نذكر بعضها فيما يلى :

١ — ينطوى مفهوم العلم على دراسة حقائق الكون ببساطة وهذه هى السمة التى وردت فى القرآن عن أهل الإيمان . . إنهم « **يتفكرون فى خلق السموات والأرض** » فرجل العلم يقوم بالعمل نفسه الذى يقوم به رجل الإيمان . ولكن مع فرق واحد هو أن العالم يقتصر فى بحثه على البحث العلمى ، بينما يهدف المؤمن بهذا العمل إلى العبرة ، وبالتالى يطمئن العالم

إلى الكم الهائل فى المعلومات بينما يطمئن المؤمن إلى ما يطمئن إليه قلبه وضميره وعقله المؤمن .

وقد يؤدى هذا الاختلاف العقلى إلى الاختلاف فى أسلوب الدراسة وطريقة البحث فيقتصر العالم الطبيعى على خواص الأشياء ويترك ماهية الأشياء ويفضل مظهرها النفعى عن جوهرها ، وهو - أى العالم الطبيعى - يفعل ذلك بما أنه يريد أن يرى الكون بوحى من عقله فقط ، ومعلوم أن العقل الإنسانى لا يستطيع أن يرى رؤية مشاهدة قطعية إلا الأشياء التى تختبر وتلمس ، وبالتالى ففى لغة العقل لا محيص عن الاكتفاء بالجوانب القابلة للاختبار من الكون .

غير أن المؤمن لا يستضىء بنور العقل فقط ، بل يسترشد بتعاليم النبوة أيضاً ، فيجتاز خواص الأشياء إلى حقائق الأشياء وينتقل بنظره من المخلوق إلى الخالق ، فيرى وكأن الكون كله مظهر لصفات الله ، فما إن يرى الكون حتى يجد خالقه وصانعه الذى آمن به بواسطة رسوله الموحى إليه ٥

لقد استدل القرآن بالأحداث الكونية لإثبات رسالته ، وإن ما جاء فى القرآن داخلا فى النظر العلمى يصبح للمؤمن براهين يقينية ، وبهذا يصبح العلم كله « علم الكلام القرآنى » لأن العلوم ليست من صناعة بعض العلماء ، بل هى عبارة عن (البحث عن القوانين الموجودة فى الكون) فكل ما يعثر عليه العلم إنما هو نفحة من أعمال خالق هذا الكون . . والعالم الطبيعى لا يستهدف العلم إلا للعلم أو لتعمير الدنيا ولكن العالم المؤمن يستهدف العلم ليجعل منه سلاحاً يتسلح به ضد أعداء الدين الحق ، ولينفذ به إلى القلوب ترغيباً فى دعوة الإسلام .

٢ - والأهمية الثالثة للعلوم من المنظور الإسلامى هى الأهمية التى ألمحنا إليها . ونعنى بها (القوة) التى لابد منها للمسلمين فى جهادهم أعداءهم . .

والعلم هو (القوة) فى العصر الحديث ، فيلزم الحصول على قوة العلوم للنهوض بالإسلام والمسلمين ، وذلك يتوقف على تقدم المسلمين فى تحصيل هذه العلوم المادية التى يجب أن يمهروا فيها ويحتلوا درجة القيادة فيها .

إن النصف الثانى من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين يشهدان بوجود حركات استقلال سياسية فى كافة أقطار العالم الإسلامى ، وقد رأى زعماء هذه الحركات أن القوة والسيطرة والرفعة ترادف التخلص من براثن الاستعمار ، وكانوا يتصورون أن الاستقلال السياسى هو بنفسه (ازدهار الإسلام) ونهضته ، ولكننا اليوم وبعدما تحررت البلدان الإسلامية عبر تضحيات كبيرة فلا تزال هذه البلدان تركع أمام البلدان الأكثر تقدماً فى العلوم والتكنولوجيا ، وأن استقلالها السياسى لم يرتفع بها إلى مكانة المجد المرتقب . . والسبب هو أن هذه البلدان الإسلامية تحتاج إلى هذه الدول غير الإسلامية فى كل شىء من للساعة إلى الأسلحة والمعدات الحربية .

ويتجلى لنا من ذلك أن كل شىء فى هذا العصر يتعلق بالعلوم التكنولوجيا والأمم التى تتخلف فى هذا المجال ، لن تستطيع أن تحتل مكانة مرموقة فى هذا العالم .

الكلمة الأخيرة

عند يمر شخص بشارع (البرلمان) فى (نيودلهى) فسوف يرى عمارة عجيبة تدعى « بجنتر سنتر » لقد كانت هذه العمارة مرصداً بناه أمير ولاية (جى فور) فى النصف الأول من القرن الثانى عشر إذ كانت له ميول كثيرة لعلم الفلك ، وبالتالى بنى المراصد الكثيرة فى مختلف المدن فى البلاد .

لقد كان العلماء فى قديم الزمان يقدرون سير القمر والكواكب ، ويقدرون المسافة ما بين الأرض والنجوم ، ويتنبأون بحالة الطقس بهذه المراصد الجوية . . ويقدرون الوقت بالقمر فى الليل وبالشمس فى النهار ذلك أن نوافذ العمارة وثقوبها كلها كانت تكون تقويماً للسنة كلها .

إن جميع الأعمال العلمية البناءة فى القرون الوسطى كانت نقلا - فى الأصل - عن علماء المسلمين ، فهذا المرصد الذى بناه الأميرجى سنكو لم يكن إلا نقلا عن مراصد (العهد العباسى) وقد تم بناؤه بنفس النهج الذى اتخذ فى تعمير مرصد هارون الرشيد قبل ألف سنة .

لقد احتل المسلمون مكانة الإمامة فى العالم بالأمس القريب ، والدنيا كلها كانت تحذو حذوهم وتقتفى آثارهم ، ثم أفلتت هذه الإمامة من أيديهم على غفلة منهم .

لقد كان من الواجب على أى شخص ينشىء مرصداً قبل ثلاثة قرون أن يتبع المنهج الذى وضعه المسلمون فى بغداد ، ولكن الآن عندما يريد أحد أن ينشىء مرصداً فإنه سوف يستورد التصميمات كلها من الغرب .

هذه هى (المحطة) التى انتهت إليها رحلة حضارة المسلمين ..

وهذه هى النقطة التى يمكن أن تكون نقطة انطلاق مجدهم من جديد .

علم الكلام الجديد

تتلخص حقيقة علم الكلام الجديد فى أنه استجلاء حقائق الدين بالأدلة التى تطمئن الذهن الجديد والعقلية الجديدة ، وتوصل التعاليم الإسلامية بأحدث أساليب الاستدلال الملائمة للعقل الجديد .

فما هو العقل الجديد .. يا ترى ؟ .

إن مدلول هذه الكلمة مدلول مرادف لكلمة العقل العلمى ، أو العقلية العلمية ..

والعقلية العلمية عقلية تهمها الحقائق ، فقد أحدثت العلوم ثورة فكرية فى التاريخ الإنسانى ، هى تتمثل فى تقديم الكلام على أساس التجربة والمشاهدة لا على أساس التخمينات أو القياسات المنطقية ، فإن الثورة التى حدثت فى العصر الحديث تقوم على دراسة الحقائق الطبيعية ، وكل شيء مخترع فى هذا العصر سواء أكان دراجة أم طيارة ، مصباحاً أم مصنعاً إنما هو عمل يتماشى مع الحقائق الطبيعية .. هذه هى الثورة التى قادت كل الثورات العقلية فى هذا الزمان ، وما من جانب من جوانب الحياة إلا وتأثر بهذه الثورة ، حتى تغير أسلوب التحليل فى هذا العصر . . لقد كان الإنسان يستنفد الجهود عبر القرون ، لتحويل الحديد إلى الذهب بعمليات يحيط بها الغموض والسر .. ولكنه يحول الآن الحديد إلى الماكينات بعد الوصول إلى أسرار الطبيعة ، وهذه الماكينات أغلى وأثمن من الذهب . وفى هذا الوضع المتغير ، من الطبيعى أن يولى إنسان اليوم أهميته أكثر وزناً لأمر ثبت على أساس الحقائق الطبيعية .. لقد سار إنسان اليوم فى مدارج الرقى على أساس الحقائق ، فإنسان اليوم لا يصنع يقينه وطريقه إلا على أمور تثبتها الحقائق.

وأضرب لك مثلا بسيطاً لتعرف الفرق بين ما هو من الفكر القديم أو الجديد ، إنه قبل خمسين سنة كان الأطباء يعجبون بكلمات مثل : « وصفة طبية سرية توارثها الأسرة كابراً عن كابر » ، و« دواء ملكى خاص » و« علاج عريق فى القدم » فإذا ما استعملت هذه الكلمات بصدد أى دواء للإنسان ، فمدلولها كان « الخواص العجيبة المدهشة » ولكن هذه الكلمات فقدت اليوم كل قيمة ، ولا ينطق (دكتور) اليوم بمصطلح « وصفة قديمة » فى إثبات أية أهمية لدواء أو لمعجون للأسنان ، بل سيقول « أعد الدواء بطريقة علمية » بمعنى أن فائدته قد ثبتت بتجارب ومشاهدات معلومة .. ويمكن لكل أحد أن يصدق نتائج صحة هذه التجارب بالقيام بها والعمل وفقها ، بينما كانت كلمة « العلاج الخاص القديم » تعنى أن الخواص الطبية هى ما وراء الإدراك ، وأن العلاقة بين الداء والدواء لم تحدد بالتجربة وأهمية هذا الدواء عرفت بالتوارث فقط ، لكن الإنسان العصرى لا يعجبه إلا المسحوق الذى صنع وأعد بطريق علمى يخضع لتتابع الحقائق الطبيعية فكذلك لا يقبل الإنسان العصرى فكراً إلا إذا عرف أنه يطابق الحقائق الطبيعية ، لقد كان الفكر الإنسانى يقوم قبل الثورة العلمية على القياسات الفلسفية ولكن الثورة العلمية وضعت الفكر الإنسانى على أساس الحقائق المعلومة . وهنا تبدأ الفجوة بين علم الكلام القديم وعلم الكلام الجديد ، وتصل إلى حد القطيعة ، فقد كان علم الكلام القديم يبنى على نمط الاستدلال الفلسفى ، بينما يبنى علم الكلام الجديد على نمط الاستدلال الطبيعى ، وكانت الحقيقة تبرهن سابقاً لمنطق القياس ، ولكنها تبرهن فى عصرنا هذا بالشهادات الواقعية .

وفى ضوء هذا الشرح الوجيز للعقلية الجديدة أريد أن أقول : إن نمط الاستدلال الجديد — حتى ولو كان جديداً بالنسبة للأديان والأمم الأخرى

فإنه ليس بجديد بالنسبة للإسلام . . فإذا أخذنا بعين الاعتبار هذه الحقيقة فسيتجلى لنا أن نمط الاستدلال القرآنى إنما هو نفس النمط الذى يعبر عن الاستدلال بالحقائق الطبيعية ، فلا نكون مبالغين إذا قلنا : إن علم الكلام الجديد إنما هو علم الكلام القرآنى ، وليس علم الكلام الجديد إلا العودة إلى الكلاميات القرآنية .

يذكر لنا القرآن أنه لما دعا إبراهيم عليه السلام قومه المشركين إلى التوحيد قبل أربعة آلاف سنة أقام الدليل على دعوته بمشاهدات الشمس والقمر والنجوم ، وقد ذكرت هذه القصة فى سورة الأنعام ، حيث نقرأ هذه الكلمات : « **وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه** » فكلمة « حجتنا » تشير إلى أن نمط الكلام الذى اتخذه إبراهيم عليه السلام كان نمط الكلام الإلهى ، ويتجلى من هذا أن الحجة الإلهية أو الاستدلال الإلهى هو أن يستدل من الحقائق المعلومة المشهودة لهذا الكون .

ونمضى فى هذا السياق فنقول إن التعليم الذى أعطاه الله فى كتابه بصورة كلامية جعل الكون بأسره دليلا عملياً لتأييده وتأكيده ، وأى دليل يكون أقوى من الدليل الذى اتخذه الله لنفسه ؛ ولذلك جاء فى القرآن فى جانب « **هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق** » (الجاثية : ٢٩) ، وجاء عن الكون (السماء والأرض) فى جانب آخر « **وما خلقناهما إلا بالحق** » (الدخان : ٣٩) .

ومن هذا يبدو لنا أن القرآن والكون كليهما إظهار للمشيئة الربانية وهو إظهار بصورة (كلامية) فى مكان ، وإظهار بصوره (عملية) فى مكان آخر .

ونحن نعلم من القرآن أن هذا هو الطريق الذى اختاره الله لجميع رسله

فهذا نوح عليه السلام الذى عاش فى سالف العصر وقديم الزمان ومع ذلك فأسلوب استدلاله هو نفس الاستدلال المبنى على البراهين الحقيقية أو الطبيعية ففى سورة نوح ، يقول نوح عليه السلام : « .. **فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفاراً . يرسل السماء عليكم مدراراً مالكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطواراً . ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً . وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً . والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلا فجاجا** » (نوح)

وانظر بعد هذا فى أسلوب الدعوة القرآنى الذى نسميه الأسلوب المعتمد على الحقائق الطبيعية ، يقول القرآن : « **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت** » (الغاشية) .

إن هذا هو الاستدلال الإسلامى الأصيل الذى تبناه سائر الرسل والأنبياء والذى نجده بكثرة فى القرآن .

ولكن لما بدأ تدوين العلوم الإسلامية فى القرن الثانى الهجرى أيام الخلافة العباسية ، تم ترتيب علم الكلام الإسلامى على نسق من المنطق والفلسفة القديمتين ، ثم أدخل علم الكلام الإسلامى بمنهجه هذا فى المناهج الدراسية زمان الإمام الغزالى ، وجرت الأمور التعليمية على هذا النحو قروناً طويلة دون انقطاع ، حتى غدا علم الكلام مرادفاً لعلم المنطق . ولقد كان ذلك انحرافاً عن منهج القرآن ، حين وضع علم الكلام أبنية الاستدلال الإسلامى على أساس المنطق القياسى ، بينما وضع القرآن أبنية الاستدلال الإسلامى على أساس الشواهد الطبيعية ، ولقد سيطرت الكلاميات المنطقية على عقول الناس حتى أضحت شغلهم الشاغل مدة ألف سنة .

غير أن الأوضاع الخارجية فى هذا العصر الحديث ترغمنا على ان نتركها ونتخلى عنها ونرجع إلى أسلوب القرآن الطبيعى القويم ، ولئن كان علم الكلام قد يتمتع بقدر قليل من الوزن العامى قبل الثورة العلمية فإنه قد فقد هذا الوزن اليوم ، وإن أفادت الدعوة منه ، تلك التى لم تكن توجد فيه حتى فى مرحلته الأولى قد ابتعدت عنه أقصى الابتعاد فى عصرنا الحديث .

وإن علم الكلام الجديد ليس إلا علم الكلام القرآنى ؛ وفى الإمكان التعرف على علم الكلام القرآنى جملة وتفصيلا ؛ بتتبع آيات الكتاب ، وسوف نذكر فيما يلى بعض الجوانب المستقاة من (الكلاميات القرآنية) وهى تلك الجوانب التى يعتمد عليها فى فهم علم الكلام القرآنى :

أولا : لإدراك أول مبادىء الكلاميات القرآنية يجب علينا أن نتأمل هذه الآية : « **يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** »

فثمة سائل سأل ، وينتظر الجواب ، لكنه لم يرد عليه — وفوق ذلك نرى تثبيط همته حتى لا يثير مثل هذه الأسئلة . وقد علمنا أنه ثمة أسئلة توجد أجوبتها الحقيقية خارج حدود إدراك الإنسان ، فلا يستطيع الإنسان أن يفهمها كما لا يستطيع الجنين أن يفهم الدنيا خارج رحم أمه ، وإذا رأيت شخصاً يتورط فى حمأة مثل هذه الأسئلة فأحسن إليه وانصره بكفه عن إثارة هذه الأسئلة ، وعلى العكس من ذلك إذا أراد شخص أن يرد على السؤال متمادياً فى الظلمات فإنه سيصر نفسه ويضل غيره .

ذات يوم قابلنى شخص وقال : إن سؤالا يحيرنى منذ مدة طويلة وإنى أطلب إليك الإجابة عنه ، ثم قال : إن الحديث النبوى صريح فى أن الإنسان ينال جزاء عمله ثواباً أو عقاباً فور وفاته ، فرجل يتوفى بعد

قضاء ٦٠ سنة من حياته (اليوم) .. ورجل توفى قبل عشرة آلاف سنة بعد أن بلغ من عمره ٦٠ سنة ، فإذا كان نصيب كل واحد منهما نار الجحيم فمعنى ذلك أن شخصاً نال عقاباً على اقتراف ذنب واحد مدة عشرة آلاف سنة أكثر مما لقى الرجل الذى عمل نفس الذنب ، ومات حديثاً .. وإذا كان نصيب كل واحد منهما الجنة فإن واحداً منهما سيتمتع بنعيم الجنة عشرة آلاف سنة ، أكثر من نصيب الرجل الآخر ، فللإجابة عن هذه المسألة — والكلام لا زال للسائل — كان على الله أن يخلق جميع الناس فى آن واحد ، ثم يتوفاهم فى آن واحد لينالوا العقاب أو الثواب سواء بسواء.

وللتعليق على مثل هذه الأسئلة نقول : إن جميع مثل هذه الأسئلة ناجمة عن سوء الفكر وفساد العقل ، فإننا نحيا حياتنا فى عالم محدود ، ولا نتجاوز حدود الزمان والمكان فى تفكيرنا ، فليس بإمكاننا الإحاطة بجميع الحقائق عن الآخرة التى تتعالى عن حدود الزمان والمكان ، ونحن لا نستطيع الحصول على العلم الكافى عن الآخرة ، اللهم إلا إجمالا ، ولابد لنا أن نقتصر على هذا العلم الإجمالى ، وأما الحرص على الزيادة فى هذا العلم فهو طريق محفوفة بالأخطار .

لقد جاء فى القرآن أن الآيات تنقسم إلى قسمين — محكمات ومتشابهات أما المحكمات فتتصل بدنيانا المعلومة ونستطيع فهم مدلولاتها مثل « **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما** » (المائدة : ٣٨) .. أما المتشابهات فهى تختص بأمور الغيب ، فقد بين الله هذه الأمور بأسلوب رمزى مثل :

« **ثم استوى على العرش** » (الأعراف : ٥٤) وإن السعى لفهم مدلولات أو مفاهيم الآيات « المحكمات » أمر مفيد ، ولكن السعى لتعيين مدلولات « المتشابهات » سيعود بالضرر والخسران على المسلمين .

إن هذا التقسيم للعلم (المحكمات والمتشابهات) يتلاءم مع الطبيعة البشرية ويتجلى لنا من المعطيات العلمية الحديثة ، إن هذا التقسيم صحيح ، وإن علم الإنسان محدود . ولقد أصبح مما لا شك فيه أن أحداً من العلماء فى عصر العلم الحديث لا يجادل فى أن الإنسان لا يتأتى له إلا إحراز علم محدود جزئى وأن العلم (الكلى) فوق قدرته ، ويتجلى من هذا أن أول مبادىء (الكلاميات القرآنية) يقوم على أساس علمى ... إنه الأساس الذى اعترفت به العقلية الجديدة ببحوثها وتنقيباتها ..

ثانياً : إن المبدأ الثانى لعلم الكلام القرآنى هو الاستدلال على الحقائق بالطرق الطبيعية ، وكما ورد فى القرآن : « **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** » (فصلت : ٥٣) ونذكر بعض الأمثلة فى هذا الخصوص :

(أ) لقد قام القرآن بالدعوة إلى الإيمان بالله الذى خلق هذا الكون .. ولكن ما هى الأدلة على هذه الدعوة ؟ . . لقد أقام المتكلمون القدامى أدلة قياسية تحت ضغط عقليتهم الفلسفية ، ولكن القرآن يقيم الأدلة المشاهدة ، فيقول : إن هذا الكون الواسع الذى ترونه رأى العين ولا تنكرونه إنما هو فى حد ذاته دليل على خالق الكون :

« **أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما . وجعلنا من الماء كل شىء حى أفلا يؤمنون** » (الأنبياء : ٣)..

ففى هذه الآية نرى بوضوح إشارة إلى حادث كونى يسمى بنظرية « Big Bang » (فى العصر الحديث) ، فبما أن الله مطلع على الإنسان منذ ميلاده إلى وفاته وعليم به . . وهو لهذا يخاطب الناس المنكرين بأسلوب غير زمانى ، فيقول لهم : إن أدلة وحدانية الله موجودة وكائنة فى نفس الكون الذى تشاهدونه بعيونكم فكيف تكفرون به ؟؟ . .

فى عام ١٩١٣ كشف العالم الفلكى الأمريكى « ڤستوملڤن سلفر » « Vesto Melvin Sliipher » فى مرصد « لوفيل » خلال بحثه – كشف أن ثمة مجرات تندفع إلى اتجاه الخارج بسرعة فائقة ، ثم كشف العالمان (أدون هبل) « Edwin Hubble » وملتون هوماسون « Milton Hamason » – بعد مشاهدة من منظار يصل لمائة بوصة – أن سائر المجرات تسير بسرعة إلى اتجاه الخارج . . وقد جمع عالم الفلك الهولندى (وليم دى ستار) شواهد فى تأكيد هذه النظرية . وفى عام ١٩٦٥ كشف أرنو بنزياز « Arno Penziss »وروبرت ويلسون « Robert Wilson » عن بعض الأشعة الناتجة عن الانفجار الكونى البدائى ..

وبعد هذه البحوث العلمية المتتالية راحت هذه النظرية تعتبر حقيقة ثابتة !

إن هذه النظرية تفيدنا أن العالم ليس أزلياً ، بل إنه بدأ فى وقت خاص محدد لا نعرفه ، وتدل هذه النظرية على أننا نعيش فى عالم يزيد حجماً باستمرار ، وأن المجرات تندفع إلى اتجاه الخارج بسرعة مدهشة .

ويقول علماء الحساب : إن هذه السرعة الخارجية لو وجهت إلى الداخل فسيصبح هذا الكون (كرة هزيلة) بعد عشرين ألف مليون سنة .

وهذه النظرية دليل على وجود الله بالقوانين الطبيعية ، لأن الكرة المادية الجامدة لا يمكن أن تتحرك إلى اتجاه الخارج بصفة منتظمة بدون محرك خارجى .

ونشر العالم الأمريكى روبرت جاسترو « Robert Jastrow » مقالا فى مجلة « Reader' s Digest » فى أكتوبر سنة ١٩٨٠ ، جعل عنوانه هل اكتشف علماء الفلك وجود الله؟ « Have Astronomers Found god »

ولما كان ثمة علماء قد اعتقدوا بإمكان التعليل العقلي لكل حادث ليظهر كنتيجة لحادث طبيعي آخر وقع في الماضي .. فقد اضطرب هؤلاء العلماء عند ظهور هذا التحقيق ، وشعروا بالهلع والفزع ، إذ أن الاعتراف بصحة هذا التحقيق يكون رديفاً لوجود (إرادة الله في الكون) بدلا من سلسلة العلة والمعلول والفعل ورد الفعل ، ولما لم يسعهم إنكار هذه الحقائق والتقليل من أهمية هذا الحدث العظيم ، أطلقوا عليه اسم Big Bang أي (الانفجار العظيم) ، ويعني ذلك أن العالم أو الكون ، ظهر إلى الوجود (بانفجار صرف) .

وقد سأل عالم أمريكي ملحد من هؤلاء العلماء الذين أزعجهم هذا الكشف العلمي ، فقال لرجل دين : وماذا كان الله يصنع قبل خلقه الأرض والسموات ؟ ...

فأجابه الرجل : إنه كان يعد جحيما لأولئك الأشخاص الذين يثيرون مثل هذه الأسئلة .

He was Setting hell for People who ask Questions Lik that.

(ب) القرآن يخبرنا أن هذا العالم ليس بعالم نهائي ، بل يعقبه عالم آخر ولو أنه في الغيب لكنه حقيقة واقعة ، وتأكيداً لهذا القول أقام المتكلمون القدامى أيضاً أدلة منطقية قياسية ، ولكن القرآن يقدم الأدلة على قوله بالعلم التجريبي ، فهو يقول : « **ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون** » (الذاريات : ٤٩) ، فإذا كان لكل شيء زوجه الذي يستكمل به نفسه فلابد أن يكون لهذه الدنيا زوج — وزوج هذه الدنيا هي الآخرة .

لقد كان الإنسان يعلم من قديم الزمان بأن للإنسان والحيوان زوجا ، ولكنه لم يكن يعلم حتى عام ١٩٣٨ أن للمادة الجامدة زوجاً أيضاً ،

وفى نفس العام اكتشف عالم من علماء الطبيعيات الرياضية وهو بول ديراك « Paul A. M. Dinrac » إمكان وجود ذرة غير مرئية مع ذرة مادية مرئية – واكتشف فى عام ١٩٣٣ العالم أندرسون « K. Anderson » خلال دراسته للأشعة الكونية بوجود ذرة مع الألكترون تتمتع بقوة برقية مضادة وقد سميت هذه الذرة « بالألكترون المضاد » وقد مضى هذا التحقيق حتى علم أن سائر الذرات الكائنة فى الخليقة توجد بشكل أزواج ، « Pain Particels » فهناك جسيمة مضادة للجسيمة ، وذرة مضادة للذرة ، وميتر مضاد للميتر ، وعالم مضاد للعالم ، كما أعلمنا «ديراك» فى عام ١٩٣٣ م .

ويرى بعض العلماء فى العصر الحديث أن للعالم المضادوجوداً متوازياً لعالمنا ومنفصلا عنا ، وقد جعلت هذه الدنيا بصورة الماستر ، وبموجب قوانين الطبيعة لابد أن يكون هناك عالم آخر مصنوع من الماستر المضاد . ويقاس عليه بأنه قبل عشرين ألف مليون سنة قبل حادث « Big Bang » المشار إليه سلفاً ، اجتمع (ماستر الغوثان) و (الماستر المضاد) فى صورتين مختلفتين ، وقاما بتكوين العالم والعالم المضاد .

لقد قام بدراسة هذه النظرية أولا عالم سويدى للطبيعة يدعى أوسكر كلين « Osker klien » وعالم الفلكيات الطبيعية هانيس الفوين « Hannes Alfuen » وقدما نتائج دراستهما فى سنة ١٩٦٣ ، ثم ثم أضاف الدكتور غوستاف نان « Gustav nan » بعدهما نتائج بحثه فى أنه لا يمكن الإخبار تفصيلا عن العالم المضاد بالقوانين المعلومة للطبيعة ، ولكنه متأكد بوجود العالم المضاد الذى هو منفصل عنا ، وله وجود متوازن لدنيانا .. وإن جميع الجسيمات المضادة توجد فى حالة غير مستقرة فى هذه الدنيا ولكنها ستكون فى حالة مستقرة وقائمة مع الدنيا

المضادة ، لأن جزئيات كافة الذرات ستكون لها قوة برقية سلبية ، وستكون لطاقة الألكترون قوة برقية إيجابية .

(ج) ولنأخذ مثالا آخر جاء فى القرآن عن (فرعون) .. إنه يقول :
« فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون » (يونس : ٩٣) .

ووفاء بهذا الوعد حافظ الله على جثة فرعون لأجيال متلاحقة تحقيقاً للعبرة ، وقد استخرج علماء الآثار الأوربيون جثة فرعون بمدينة مصر القديمة طيبة « Thebes » بعد أعمال الحفر ، ويرى العلماء أن موسى عليه السلام عاش عهد فرعونين ، ولد موسى عليه السلام فى أيام رمسيس الثانى وغرق إبنه مرنفتاح « Merniftah » عندما أراد أن يلحق بموسى عليه السلام حين خرج موسى مع بنى إسرائيل من مصر ، وقد عاش فرعون وموسى فى القرن الثالث عشر قبل ولادة المسيح ، وتوجد جثتا فرعونين فى المتحف المصرى بالقاهرة للزيارة العامة ، وقد أثبت البحث العلمى أن « مرنفتاح » هو نفس الفرعون الذى غرق فى الماء .. فقد جاء فى الإنجيل أن فرعون مات غرقاً فى البحر ولا يشير الإنجيل إلى استبقاء جثته أدنى إشارة ، والتاريخ صامت فى ذلك ، ولم يكن الإنسان يعرف شيئاً عند نزول القرآن ، وإلى ألف سنة بعد نزول القرآن عن جثة فرعون .

أليس ذلك مما يثير الإعجاب ويدل على كون القرآن كتاب الله ؟ ..

إن جثة فرعون قد تم العثور عليها ، وهى سليمة ولم يأكلها الدهر ، ويقول الدكتور (موريس بوكاى) فى كتابه « الكتب المقدسة فى ضوء العلم الحديث » : إن الذين يطلبون بالأدلة الحديثة التعرف على مدى صدق الكتب المقدسة ، عليهم تدبر هذه الآيات من القرآن ، ثم عليهم أن يشاهدوا

المومیات المحنطة فی المتحف المصری بالقاهرة ، فسوف یرون (الشهادة المحققة لصدق القرآن) .

وأنا هنا أحيل الذين يريدون دراسة هذا الموضوع تفصيلا إلى بقية ما أورده الطبيب العالمى (بوكاى) فى كتابه السالف الذكر ، فالحق أن هذا الكتاب ضاف فى هذا الموضوع ، فلقد كان المؤلف يعقد المقارنات بين القرآن والحقائق العلمية الحديثة ، وقد أمضى سنوات متتالية فى دراسة الموضوع ، وتعلم لغة القرآن إلى حد كبير ، ليدرك مفاهيم القرآن بلغته . ثم ألف هذا الكتاب الذى يحتوى على (٢٥٠) صفحة مقدماً المقارنات بين آيات القرآن والعلوم — كما ذكرنا — منتهياً إلى قولته الخطيرة :

إن هذه المطابقة الدقيقة بين كتاب قديم ومعلومات حديثة لا يمكن أن تكون دون صدور هذا الكتاب عن عقل فوق مستوى البشر ... ونظراً إلى أن العلم الذى كان موجوداً فى زمان محمد والمستوى الذى كان عليه هذا العلم فى عهده فإنه لا يمكن لأحد أن يستنتج أن تلك الآيات الإلهية التى تشير إلى الحقائق العلمية قد ظهرت من فكرة بشرية ، لكن من المعقول تماماً أن يعتبر القرآن ظهوراً للإلهام الربانى ، بل وتضاف إليه ميزة ينفرد بها ، وهو أن القرآن يؤكد صحته ببيانات علمية ليست فى غيره ، حتى من الكتب السماوية (المحرفة) الأخرى ، وإنه لتتضح لنا من دراسة هذه البيانات وصحة مدلولاتها أن الآيات القرآنية إنما هى تحد معجز لمن يقول : إن القرآن كتاب ألفه بشر .

ثالثاً : والمبدأ الثالث من الكلاميات القرآنية ، هو إبراز القرآن لجانب من هذا الكون الذى قرره الله لنا ميزاناً نحتكم إليه . فالقرآن يدعو إلى أن يعبد الإنسان ربه ، ويسلم نفسه لخالقه ذليلا وخاشعاً .. ولم يقدم القرآن فى تأييد هذه المطالبة أدلة فلسفية بل استخدم أدلة طبيعية .. ولفهم هذه

المسألة علينا أن نتأمل فى هذه الآية : **« لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز »** (الحديد : ٣٥)

والميزان آلة تزن وتعادل شيئاً بشىء . وفى ضوء هذا المفهوم يبدو لنا أن الكون كله ميزان الله ، لقد خلق الله كل شىء فى هذه الخليقة على نفس ميزان العدل الذى وضعه الله للإنسان .. إن كل مخلوق مفطور على هذا العدل ، وهو يعمل على العدل جبراً ، وعلى الإنسان أن يستقيم على العدل بإرادته الحرة ، وتفيدنا الآية أن الله أخبر عن كافة الطرق العادلة التى يحبها ويرضاها ، ومعنى « الميزان » أن الله أقام هذا العالم على نفس هذه الطرق العادلة ، وعلى الإنسان أن يسترشد بمبادىء العدل من القرآن بتلاوته ، ثم لينظر إلى عمله ، وما إذا كان موازياً لنمط العدل الذى أحبه الله لكونه . وقد ورد كمثال لذلك (الحديد) لأنه يمثل المزايا الممتازة للإنسان المؤمن ، فجميع أنواع النفع مناطة فى هذه الدنيا بسلوك الإنسان الموثوق به ، وهذا هو النفع القوى الموثوق به للحديد فى عالم المادة وإن الله ليطالبنا بنفس السلوك القوى الممتاز .

وهناك مثال آخر للنحل ورد فى القرآن :

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا . يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون » (سورة النحل : ٦٩) .

ومعروف أن نظام النحل نظام اجتماعى شامل وكامل ، وفيه يمكن مشاهدة سائر الأجزاء ، التى تكون النظام الإنسانى للاجتماع والمدينة . ولكن نظام النحل يخلو من سائر المساوىء التى توجد فى النظام الإنسانى الاجتماعى ، فالنحل ينتخب مكاناً لإنشاء مجمع سكنى ، ويعد مصنعاً دقيق الصنع وبالغ التطور ، ويأتى بالأجهزة اللازمة إلى المصنع من مسافة تبعد أحياناً مئات الأميال ، وعشرات الآلاف من النحل تعمل ما فرض عليها من الأعمال . وإن الإنتاج الثمين الذى يأتى من هذا المصنع هو « العسل » الذى يحتوى على نوع ثمين من الغذاء الذى فيه شفاء من الأمراض .

ويعيش النحل هذا النظام الرائع ، ولكنه لا يدمر مساكن الآخرين ببسط نفوذه وسلطانه عليهم ، ولا يطأ الزهور والرياحين ليشرب من رحيقها ولا تحدث حوادث المناوشات والاشتباكات فى حياته الاجتماعية مع بنى جنسه ولا يضيع قطرة من إنتاجه ، ولا يصرفها كلها على ذاته ، بل يتبرع بمقدار كبير منها لإشباع حوائج الآخرين ، وييسر كل أمر فى مجراه الطبيعى فى عالم النحل .

وهكذا يقدم النحل بطريقة فعلية — بأمر من الله — النموذج الذى ينبغى أن يختاره الإنسان لنظامه حتى يسير سيرته الجديرة به .

إن الأحكام الإلهية لتتمثل لنا فى الكون من خلال نماذج متعددة منها عبادة الله فى ظل الاتصال بقوانين الطبيعة ، ومثل السلوك الممتاز القوى المتمثل فى الحديد ، ومثل سفر الحياة دون الاصطدام مع الكواكب الأخرى فى مداراتها .. ومثل التضامن والتعاضد كما فى أعمال النحل ، ومثل الإفاضة على الناس دون أى تمييز ، كما تفعل أشعة الشمس . . . وهلم جرا .

إن هذا الأسلوب للدعوة إلى التوحيد والطاعة الإلهية إنما هو أسلوب طبيعى ، وهو يقوم على الاستدلال الكونى الذى هو إرهاص لازدهار علم الإنسان وعمله .. وإذا ما أخذنا هذا الأسلوب واستعملناه بطريق مؤثر فسنجد قلوباً واعية وآذاناً صاغية للإنسان فى المجتمع البشرى.

إننا نرى الإنسان يجعل تقويمه السنوى والشهرى وفقاً لظهور الهلال وتدرجه إلى الكمال ونحن نرى أن الإنسان يجعل توقيته مرتبطاً بدوران الأرض حول الشمس ، ونلحظ أن الإنسان يصنع الأشياء على نماذج الطبيعة (السفينة على نموذج السمك ، والطيارة على نموذج الطير ، والكاميرا على نموذج العين وما إلى ذلك من الأشياء الأخرى) . ومع ذلك فهو — للأسف — لا يجعل الأخلاقيات الكونية نموذجاً لأخلاقه وسلوكه ، وهذه مفارقة غريبة ، فالإنسان يتخذ الكون مقياساً له فى المجالات المادية ، لكنه يرفض أن يتخذ الكون مقياساً أخلاقياً له ..

رابعاً : والمبدأ الرابع من مبادىء علم الكلام الجديد ، هو اتخاذ الأسلوب السلس البسيط للكلام ، وهذا الأسلوب البسيط هو الأسلوب الذى فيه سذاجة حسب الحقيقة وسير الطبيعة وهو يخلو من الزخرفة .

لقد خلق الإنسان على فطرة بسيطة ، وإذا كان الكلام بسيطاً خلواً من التعقيد فسيكون كالشىء الدائرى الذى وضع فى مكان دائرى . . . وعلى العكس من ذلك إذا كان الكلام صناعياً فسيكون كالشىء المكعب الذى وضع فى مكان دائرى .. ومن ثم فنحن نرى أن الكلام البسيط السهل يسترعى طبيعة الإنسان وينفذ فى أعماقه ويسيطر على وجوده ، بخلاف الكلام الصناعى المعقد الذى لا تتشربه طبيعة الإنسان ولا يستطيع أن يهضمه هضماً صحيحاً أو لا يسيغه كلية .

لقد كان الأسلوب الأدبى رائجاً فى قديم الزمان فى سائر أنحاء العالم ، فمن شاعر يقدم أحاسيسه نظماً ، ومن كاتب يظهر أفكاره نثراً مسجوعاً ، ومن فنان يفصح عن مرئياته فى تمثيله ، ومن قصصى يعرب عن مشاعره فى صور قصصية .

ولكن الأسلوب الأقوى فى عصرنا هو ذلك الأسلوب الذى يقدم الكلام بصورة واقعية وحقيقية ، ويفهم أن هذا الأسلوب الجديد هو نتاج القوة العلمية وهو يدعى (بالأسلوب العلمى) ولكن الحقيقة هى أن هذا الأسلوب ظهر لأول مرة فى القرآن .

فالقرآن أول كتاب قام على الموضوعية والحقيقة فى التاريخ ، وهو الذى أسس الأسلوب الطبيعى ، وهجر الأسلوب الصناعى .. فإن الأسلوب العلمى إنما هو أسلوب قرآنى بحت ، ولكن بعد أن انتشرت العلوم العقلية (المنطق والفلسفة) بين المسلمين بعد نزول القرآن بمائة سنة ، سيطر الأسلوب الصناعى القديم على جميع العلوم الإسلامية مرة أخرى ، وكان القرآن قد قضى على ذلك الأسلوب ، فبدأ الناس يحسبون أنه امتلاك لناصية البيان أن تصاغ تعاليم الدين السمحة السهلة فى قالب مصطلحات (المنطق) . وكانوا يحسبون أن من براعة الإنسان وقدرته على الكلام أن يقدمه فى النثر المنظوم ، أو الشعر المنثور ، وقد آن الوقت لأن نعود إلى أسلوب القرآن ونعرض الإسلام على الناس فى أسلوب علمى ، لأن الأسلوب العلمى فى التحليل الأخير هو أسلوب القرآن !! ..

وإذا أخذنا بالأسلوب العلمى ، فسيعنى ذلك مجرد العودة إلى أسلوب القرآن .

البعث الإسلامى الجديد

إن الله يريد أن يعلو دينه ويتبوأ مكانة الفكرة المهيمنة على امتداد العالم . ولأجل تحقيق هذا المقصد يجب أن تكون الظروف فى العالم مواتية ، وقد جعل الله الظروف مواتية لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم بعد تتابع عشرات القرون قبل البعثة ، وقد عرف رسول الله كيف يستخدم هذه الأحوال والظروف حتى يكون الدين فكرة مهيمنة ومسيطرة فى العالم .

ولقد جعل الله الظروف مواتية مرة أخرى نتيجة عمل دام ألف سنة ليكون الإسلام فكرة غالبة من جديد وليستعيد مجده الغابر .

ولكن تحقيق الآمال والأفكار فى الواقع يحتاج إلى جهود جدية ملائمة وإلى الوعى العميق بظروف العصر ، مع التسامى عن نفسية رد الفعل ، مع التركيز على الغاية والتضحية بكل مطلب آخر حتى تستنير الأمة بنور الحكمة الربانية لا بالعقل الإنسانى المعوج ، ومقصدها رفع راية الله فى الأرض لا رفع راية المجد القومى أو العظمة المادية .

والذين قاموا بهذه الجهود فى الماضى أعلوا دين الله ، والذين سيقومون بهذه الجهود فى الحاضر عليهم أن يعلوا دين الله ، وأما الذين يستقطبون اهتمامات الناس بالهتافات والشعارات ، ويلهثون وراء قضية مبتدعة ، إنما يضيعون الإمكانية العظيمة لإحياء الإسلام ، وهؤلاء ليسوا ممن يريدون إصلاح الواقع ، وإنما هم دعاة أمجاد زائفة ومغانم شخصية .

مقارنة :

إن الانقلاب الإسلامى الذى تحقق فى زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم اكتملت إنجازاته فى (٢٣ سنة) فقط ، وذهب ضحيته (١٠١٨)

شخصاً فقط ، وعدد الغزوات فى هذه الفترة لا يتجاوز (٨١) غزوة . وقد ساهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه فى ٣٧ غزوة فقط ، ولم تحدث معارك إلا فى غزوات قليلة فقط ، وعدد القتلى فى هذه الغزوات كما يلى :

المسلمون ٢٥٩

المشركون ٧٥٩ = ١٠١٨

لقد كانت هذه النهضة أكبر نهضة فى التاريخ الإسلامى كله ، وقد غيرت مجرى التاريخ ، مع أن عدد القتلى فى هذه الحركة الكبرى ضئيل جداً .

وجرياً على العادة فإن المتحمسين من كتابنا وخطبائنا يقارنون هذه الحركة الإسلامية بثورات غير إسلامية فى هذا العصر الحديث ، فيقولون مفتخرين إن هذه الثورة نجحت فى التاريخ بالتضحية بألف نفس فقط .. بينما حققت الثورة الديمقراطية فى فرنسا والثورة الاشتراكية فى روسيا بالتضحية بنفوس يربو عددها على مئات الآلاف .

ولا شك أننا نحب هذه المقارنة لأن فيها غذاء لنفسية الفخر والاعتزاز ولكن ثمة طريقاً آخر للمقارنة لم يتأمله المسلمون قط ، ولعل السبب فى ذلك أن المقارنة بهذا الطريق الآخر تعطينا العبرة ولا تعطينا الفخر .. والعبرة أصعب وأمر ..

فالطريق الآخر للمقارنة هو المقارنة بين عدد القتلى فى سبيل الدعوة الإسلامية التى ظهرت فى الصدر الأول من تاريخنا وبين عدد القتلى فى الحركات الإسلامية التى ظهرت فى العصر الحديث . لقد قام المسلمون بحركات إسلامية كثيرة مستخدمين أسماء الثورة الدينية والجهاد الإسلامى . ومن الواجب على هؤلاء المسلمين أن يقارنوا هذه الحركات بالدعوة الإسلامية

التى تحققت على يد الرسول صلى الله عليه وسلم مثل مقارنتهم الثورات غير الإسلامية فى العصر الحديث بالدعوة الإسلامية فى القرن الأول .

ولئن دل هذا الطريق الآخر من المقارنة على شىء فإنه يدل بشكل مدهش على أن الحركات الإسلامية الكثيرة تقف نفس الموقف الذى تقفه الحركات اللادينية فى هذا العصر الحديث .

لقد ذهب ضحية نضال التحرير فى الهند خمسمائة ألف من العلماء والمصلحين المسلمين ، وذهب ضحيةإخراج باكستان الإسلامية إلى الوجود عشرة ملايين شخص ، والذين لاقوا حتفهم باسم الإسلام فى سوريا والعراق وإيران ومصر يبلغ عددهم عشرات الملايين .. وأدهى من ذلك وأمر أنه لا نتيجة مكافئة لهذه التضحيات الجبارة على الإطلاق .

لقد قتل ألف شخص فى الحركة الإسلامية الأولى قبل أربعة عشر قرناً وانتشرت هذه الحركة مشرّقة ومغرّبة على وجه الأرض وغيرت مجرى التاريخ وتأثر بها العالم قاطبة ولا يزال متأثراً بها على مر العصور . . ولكن الحركات الإسلامية التى أثيرت فى العصر الحديث قتل فيها مائة مليون مسلم تقريباً ولكن لم تخرج إلى حيز الوجود قطعة من الأرض حيث يمكن لنا أن نشاهد فيها الثورة الإسلامية الحقيقية ناجحة ومجدية .

ومما زاد الطين بلة أن جهودنا أسفرت عن نتائج عكسية ، وأصبحنا مصداقاً لما جاء عن اليهود فى الكتاب المقدس : « **إن بذكم البذور سيذهب سدىً لأن أعداءكم سيأكلون محاصيلكم ، وأعداؤكم سيكونون ولاة أموركم ، وإن قوتكم سيضيع ، ولن تنبت أرضكم شيئاً ، ولن تثمر أشجاركم فى البساتين** »

لقد أصبح تاريخنا الجديد مصداقاً لهذه الكلمات ، فقد قمنا بحركات كثيرة باسم الخلافة الإسلامية ، والتضامن الإسلامى طبقت الآفاق ، وملأت الآذان بالهتافات ، وضحينا بنفوسنا ونفائسنا فنتج عن ذلك أن العالم الإسلامى قد تمزق وأصبح دويلات متعددة . . لقد جاهدنا فى سبيل الوطن ولما تحرر الوطن سيطر عليه الآخرون ، وبذلنا دماءنا وأموالنا لإبراز باكستان الإسلامية إلى حيز الوجود ، ولما برزت ذهبت السلطة إلى زعماء لا يدينون بالولاء إلى الإسلام(١) .

وقد أقمنا حركة جبارة لإقامة النظام الإسلامى فى مصر ، وعندما تقرر مصير مصر غلب علينا المغامرون العسكريون .

ويجرى الكفاح من ثلث قرن للقضاء على الدولة اليهودية فى فلسطين ويبذل المسلمون كل غال ونفيس فى سبيل الوطن الفلسطينى ، ومع ذلك يزداد اليهود قوة وتزداد الدولة اليهودية اتساعاً ، وسوف يستمع المسلمون عما قريب إلى نبأ فاجع آخر هو أن إيران التى حدثت فيها ثورة إسلامية (عنيفة) وبعد تضحيات جسيمة ... ستتولى مقاليدها القوى الإلحادية بصورة تدريجية .

إن هذه الحقائق حقائق صلبة وقاسية وهى أكثر صلابة من الحجارة ، ويمكن لأى شخص أن يعيش فى عالم الآمال والأمانى الوهمية الكاذبة ، ولكن مؤرخ المستقبل لن يصدق هذه الآمال والأمانى ، وسيضطر لتسجيل أن الذين أحدثوا الثورة الفرنسية أو الثورة الروسية قد غيروا طريقة الفكر فى العالم على الأقل(٢) فحلت فكرة (الجمهورية) محل فكرة الاستبدادية

(١) نرجو ان يكون اتجاه الحكومة الجديدة فى تطبيق الشريعة بداية ضرورية (المراجع) .

(٢) وان كان تغيير معظمه الى الأسوا (المراجع).

وحلت فكرة الاشتراكية محل فكرة الرأسمالية ، أما الذين ماتوا باسم الإسلام — حتى وإن كانوا أكثر عدداً — فإنهم لم يستطيعوا أن يؤثروا أيما تأثير على مجرى الفكر العالمي .

وإن الانقلاب الذى حدث فى فجر الإسلام ليدلنا على أن ألف شخص فقط قد رضوا بالتضحية فى سبيل الدين ، فقبل الله تضحيتهم وانتصر الإسلام فى الأرض ، ولكن المسلمين قد ضحوا فى الأيام الأخيرة بعدد لا يقل عن عشرات الملايين ولكن مع ذلك لم يحالفهم النصر الإلهى ، وكانوا .. ومازالوا ، مغلوبين .. وإن ذلك لأكبر شهادة على أن معظم هذه التضحيات لم تكن على الصراط المستقيم الذى وعد الله الذين يلتزمون به بالنصر العزيز والفتح المبين .

إذا قال لك فلاح أنه بذر بذور القمح فى التربة فأنبتت الأشواك والأعشاب الصحراوية ، فإنه يكذب عليك ، لأنه لا يمكن فى هذه الدنيا التى خلقها الله أن يبذر إنسان بذور القمح فتخرج من الأرض الأعشاب والأشواك .. إن هذه استحالة ما بعدها استحالة . ولو كانت تضحياتنا فى هذا العصر على الطريق التى سلكها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتفانوا فيها لكان مستحيلا أن لا تظهر نتيجة إيجابية .. هذا هو المنطق والواقع ..

وبالرغم من ذلك فإذا رضى شخص لنفسه أن يعيش فى قبة الأحلام والأمانى فسوف يعيش ردحاً من الزمن ، لكن مع ذلك تقوم القيامة التى تهدم قبة أحلامه ، وسوف يرى أنه يقف بمفرده على أنقاض الأحلام المحطمة

النصر الإلهى :

لقد ورد فى القرآن الكريم : « **يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم** » (محمد ٧) ، ومعنى « **تنصروا الله** » أن تسيروا بخطة الله

فإن لله خطة خاصة لإخراج الأحداث ، وإن ربط جهودنا بخطة الله ، واستخدام الظروف استخداماً صحيحاً يرادف تحقيق شرط « **إن تنصروا الله** » والذين ينصرون الله بهذا الطريق فإن الله يثبت أقدامهم ويبلغهم غايتهم . ولا يمكن بلوغ المنى فى هذه الدنيا التى خلقها الله إلا بالمشاركة العملية فى الخطة الإلهية ، وإنه لن يمكن الوصول إلى الغاية بالجهود المتفرقة العشوائية ولنتفهم هذه المسألة أحكى القصة التالية :

لقد تمنى أسقف من الأساقفة أن يكون فى ضمن بيته شجرة كبيرة وارفة الظلال ليستظل بظلها ، فرأى أنه إن بذر البذر فسوف يتحول البذر إلى شجرة كبيرة فى مدة عشر سنوات ، فدارت فى خلده فكرة أخرى ، لقد استأجر أشخاصاً اجتثوا له شجرة كاملة بجذورها وفروعها وأغصانها وأوراقها ونقلوها إلى صحن بيته ، وزرعوها فى التربة بعد حفر الأرض .

وكان الأسقف مرتاح البال لأنه قطع مسافة عشر سنين فى يوم واحد ولكن فى صبيحة اليوم التالى عندما استيقظ من نومه رأى الأوراق قد ذبلت والأغصان قد تدلت نحو الأرض .. وبعد عدة أيام رأى الأوراق قد جفت وتساقطت ، ولم يبق من الشجرة إلا أخشاب ربما تستعمل للوقود .

وقد جاء صديق للأسقف فرأى أنه يمشى فى صحن بيته عند الشجرة الذابلة الخاوية فى اضطراب فسأله عن السبب فى توتره ، فأجاب : « لقد كنت مستعجلا وقوانين الله لا تستعجل » .

وبعدما قص الأسقف هذه القصة لصديقه استعبر فقال : إن جميع الأحداث التى تحدث فى هذه الدنيا يكون فيها العون من الله من جانب والعمل من الإنسان من جانب آخر .. وذلك مثل الدولابين القديمين ، فإنه بترابط الدولابين القديمين تتكون الماكينة وتتحرك الآلة ، وهكذا

فهناك عون من الله ودولاب من الإنسان ، فإذا ترابط الدولابان وتسايرا فسوف يصل الإنسان إلى الفوز ، وعلى العكس من ذلك إذا دار دولاب الإنسان بدون مراعاة قوانين الله فسوف ينكسر دولاب الإنسان ، لأن عون الله قوى ، ودولاب الإنسان ضعيف .

إن الله قد بسط التربة الخصبة على سطح الأرض وربما استغرق هذا العمل آلاف السنين لتنبت شجرة عليها ، وقد خلق شمساً وهاجة وألقى بأشعتها المناسبة على هذه التربة ، ثم وفر المياه بترتيبات كونية عظيمة ، ونظم تربية الشجرة بتغيير المواسم ،فخلق الله مئات الملايين من « البكتيريا » لتغذى جذور الشجرة أغذية الأنتروجين ، وجميع هذه الترتيبات هى قوانين الله وعونه ،فعلى الإنسان بعد ذلك أن يربط دولابه بقوانين الله وسننه ، كى تتحول هذه الإمكانات إلى شجرة ، فيبدأ الإنسان أولا بأن يأخذ بذراً ويدسه فى التراب ، فإن هذا العمل هو فى الواقع ربط دولاب الإنسان بسنن الله ، وما إن يتم هذا العمل ، حتى تأخذ ماكينة الطبيعة تتحرك وتعمل ، وستسفر عن نتيجة ، وستنبت شجرة طيبة تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، وعلى العكس من ذلك فإن الإنسان إذا ألقى البذر فى الحجارة أو دس (البلاستيك) بدلا من البذر فى الأرض ، أو اجتث الشجرة بجذورها وزرعها فى مكان آخر ، فإنه لم يربط دولابه بسنن الله ، ولم يربط نفسه بخطة الله . . وبالتالى فلن يقدر له أن يملك شجرة مورقة مثمرة .

وهذا هو الواجب على دعاة الإسلام .. عليهم أن يبدأوا بتفهم الإمكانات واستخدامها استخداماً صحيحاً ، ولا يقوموا بأعمال طائشة أو جهود عشوائية فقد تحققت الثورة الإسلامية الأولى — كما ذكرنا — لأن عباد الله المخلصين

قد ربطوا دولابهم بسنن الله وبينما ذهبت كافة تضحياتنا أدراج الرياح لأننا فصلنا أنفسنا عن سنن الله وظللنا نشتغل بما لا يعنينا بطريقة غير واعية .

دين التوحيد ودين الشرك

يبدو من الإشارات الواردة فى القرآن أن الدين الأول الذى شهده هذا العالم بعد آدم كان دين (التوحيد) وقد بقى هذا الحال قروناً عديدة ثم بدأت عبادة المظاهر التى تسمى بالشرك فتعذر على الإنسان أن يتوجه إلى ما لا يراه ، فانصرف إلى من يراه ، ولو كان يعتقد بوجود الله ، ولكنه أخذ يعبد الشمس والقمر والكواكب والجبال والبحار حتى بدأ يسجد لكل شخص حكم على الأرض ، فبعد عهد (التوحيد) الذى بدأ بعد آدم بألف سنة تقريباً ظهر عهد الشرك وانقضى عهد الغلبة الفكرية للتوحيد وسيطر الشرك على الأذهان .

لقد بعث الله برسله بعد هذا الفساد الذى شاع فى دين التوحيد ، ولكن لم يحظ هؤلاء الرسل قط بقوة أو شعبية ليستعيد دين التوحيد مكانة الغلبة والاستيلاء ، ولقد بعث هؤلاء الرسل فى كل نواحى الأرض ، ووفقاً لحديث شريف فإن عدد هؤلاء الرسل بلغ مائة ألف تقريباً ، ولكن ما من رسول إلا وقد استهزىء به فى زمانه .

وإن الإنسان عندما ينكر أمراً طيباً فلابد أن يكون ذلك على أساس شىء . كأن يكون فى غنى عنه ، أو عنده بدبل عنه . فما هو هذا الغناء ياترى إن الجواب يرد فى هذه الآية :

« فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

والمراد بهذا العلم فى هذه الآية هو الدين الفاسد الذى أصبح مقدساً على مرور الأيام ، وإن مثل هذا الدين الفاسد الموروث يكون دينا قد انغرست - للأسف - جذوره ، فربط نفسه بأسماء الصالحين والأولياء ، وعلى أسسه تبنى العمارات الشامخة من النفوذ والسلطة ويقوم عليه الهيكل القوى ، ويتبوأ أسمى مكانة بتأثير التقاليد والتاريخ .

لقد كان عند هذه الشعوب دين راسخ متين قائم على الشرك .. وقد ظهر إلى جواره دين يدعو إلى التوحيد ، لكن صوته لا يكاد يسمعه أحد فى بدايته ، وقد بدا دين الحق وكأنه الدعوى التى لم تحتشد لتأييدها تصديقات التاريخ . وليس عند الدين الجديد لإثبات دعواه إلا الدليل اللفظى لا الدليل النفعى .. وبالتالى فعندما يقارنه القوم بدين الآباء النفعى فسوف يرونه أقل فائدة من دين الآباء . لقد كان المسيح عليه السلام بدون مأوى ، وكان يأوى إلى شجرة لينام تحتها ، بينما كان إلى جواره (الرئيس الدينى لليهود) يمشى فى خيلاء ، ويعيش فى بحبوحة ، وفى مبنى عظيم هو الهيكل . فكيف يرى الشعب ذلك الشخص الذى ينام تحت الشجرة على الحق ؟؟ وبخاصة بمقارنته مع ذلك الشخص الذى يتبوأ مكانة عليا فى الهيكل ، ولذلك تستهزىء الشعوب بالرسل ، وتنكر رسالتهم على أساس تشبثها بذيول الأكابر الذين ليس منهم الأنبياء والرسل ، فكيف يمكن لهم أن يقدروا شخصاً عادياً ؟ ؟

إنهم لم يكونوا يريدون أنبياءهم دعاة للحق ، بل يريدونهم أبطالا لتاريخهم ، حتى يكونوا مبعث فخر واعتزاز .

إعلاء كلمة الله

لعلك قد رأيت على مفرق الشوارع عموداً فيه إشارات من النور الأحمر والأخضر ويشير النور الأخضر إلى السماح بالمرور للعربات ،

أما النور الأحمر فيشير إلى عدم السماح بالمرور ، وإذا خالفت سيارة هذه النظم والقوانين يصبح سائقها أهلا للعقوبة .

إن (داعى الحق) يكون فى غمار الحياة بمثابة (عمود) على مفرق الطرق ، وهو مأمور من الله أن يقف على مفترق الطرق ، وأن يدل الناس على الصراط المستقيم ، ويخبرهم عن الطريق الذى يؤدى إلى الجنة .. والطريق الذى يؤدى إلى النار .

« وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً »

لقد جاءت الرسل تترى فى هذه الدنيا بعد أن انقرض عهد التوحيد الذى بدأ منذ أن هبط الإنسان على هذا الجزء من الكون ، لقد جاءوا مرشدين للناس .. حباهم الله بالعلم الصحيح ليعلموا بنى جلدتهم ،ويخلقوا فيهم التمييز بين الخير والشر ، والحق والباطل . وقد أدى كل رسول ما ألقى إليه من مسئولية ، وبينوا الحق فى لغة مفهومة ، وأتوا بكل البراهين والحجج ، حتى وصلت رسالة الله إلى المخاطبين ، مبينين أن من آمن برسوله استحق الجنة ومن عصاه وتمرد عذاب النار .

ولكن الله أراد أن يظهر دينه لا أن يعلنه فقط .. والإعلان هو أن يدعو الناس إلى الحق ، وأن يعرض الحق مع مراعاة جميع جوانب الحكمة والموعظة ، حتى يتبين أنه الحق ، وحتى لا يمكن لأحد أن يحتج بقوله : إنى لم أسمع عن الحق ، ولم أكن أعرف طريق الهداية فى الحياة الدنيا .. وهذا هو (تمام الحجة) ؟

وأما (إظهار الدين) فهو خطوة أخرى بعد تمام الحجة ، ومعناه أن تكون فكرة الدين فكرة غالبة فى العالم . وأن تكون سائر الأفكار

الأخرى مغلوبة على أمرها . . وهذا هو إعلاء كلمة الله بتعبير آخر ، وليس المعنى الأصيل والحقيقى لإظهار الدين وإعلاء كلمة الله مقتصر على تنفيذ الحدود والأوامر الشرعية ، بل المعنى الحقيقى هو الهيمنة الفكرية ، مثل تلك الغلبة التى تحققت للديموقراطية فى بعض البلدان ، وللاشتراكية فى بلدان أخرى(١) ، وللعلوم التجريبية على الفلسفة القياسية فى هذا العصر .

وقد أحرزت بعض العلوم فى هذا العصر العلمى قصب السبق العلمى ، وفقدت بعض العلوم الأخرى امتيازها ومكانتها الفائقة .

فالمطلوب من المسلمين هو مثل هذه الغلبة الفكرية لدين الحق على دين الباطل . .

ومعروف أن الله قادر مطلق ، وكان أهون عليه أن يجعل الحق ظاهراً على الباطل ، كما جعل ضوء الشمس غالباً على الأضواء الأخرى ، ولكن هذه الدنيا إنما خلقها الله دار الامتحان ، وسنة الله أن يحدث الأحداث المطلوبة فى هذه الدنيا بطريق الأسباب ، لا بطريق (المعجزات) ولهذا خلق الله أوضاعاً فى إطار الأسباب ، لتحقيق هذا الهدف ، كما أنه أرسل رسولا يتمتع بميزة الهيمنة بوجه خاص ، ويعمل عمله وفق سنة الله لإظهار دين الحق لا لإعلانه فحسب ، لتتم نعمة الله على عباده ولتفتتح عليهم أبواب الرزق التى ظلت مغلقة بسبب سوء تصرفاتهم ووجود الفساد فى أعمالهم ، وهذا هو الذى ورد فى القرآن ، فى قوله تعالى :

« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون»

---

(١) لكن مع الاحتفاظ للاسلام بوسائله الكريمة (المراجع) .

هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »

تكوين أمة جديدة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا دعوة إبراهيم » .. ودعا إبراهيم حين كان يبنى الكعبة : « ربنا وابعث فيهم رسولا » (البقرة ١٣٩) ولكن الفترة الزمنية التى تحققت فيها دعوة إبراهيم تمتد إلى حوالى ألفين وخمسمائة سنة ، وهى الفترة ما بين دعاء إبراهيم وولادة الرسول صلى الله عليه وسلم .. والأمر الذى يحمل على التفكير والتأمل هو أن زكريا عليه السلام عندما دعا الله أن يرزقه ولداً ، لم ينقض إلا عام واحد حتى استجيب دعاؤه وولد يحيى عليه السلام .. وحين دعا إبراهيم مثل ذلك الدعاء فإن الاستجابة الفعلية تحققت بعد ألفين ونصف ألف عام .. فما الفرق بين هذين الأمرين المختلفين ؟

إن الفرق هو أن يحيى عليه السلام كان عليه أن يؤدى دوراً موقتاً ، فقد بعث ليفضح مكائد اليهود ، ثم يقتل ، ليبرهن بقتله على أن اليهود قد بلغوا من الفساد شأواً بعيداً ، حتى انقطع أمل إصلاحهم ، وكان الأوان قد حان ليتم خلعهم ، حتى يحمل قوم آخرون مسئولية الكتاب الإلهى.

ومقابل ذلك كانت مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يدحض الشرك وأن يتبوأ التوحيد مكان الفكر الغالب المسيطر .. وكان العمل يقتضى تكوين أمة صالحة جديدة وإيجاد أوضاع مواتية منسجمة مع السنن الكونية . وكانت هذه هى خصائص الأمة الصالحة ، كما كانت هذه هى الأوضاع التى أخذ إيجادها ألفين وخمسمائة سنة .

وبناء على هذه الخطة أمر سيدنا إبراهيم أن يخرج من المنطقة المليئة

بالشوائب الحضارية فى العراق ، وأن يسكن ابنه (إسماعيل) وأمه (هاجر) فى واد غير ذى زرع فى الحجاز : حيث كانت الأرض جدباء غير قابلة للزراعة ، ولذلك كانت بمنأى عن العالم المتحضر حين ذلك ولذلك كانت الأرض صالحة لبناء قوم غير ملوثين بأوضاع المدنية وسوء اتها ، لتكون مواهب أولئك القوم مصونة من الأخلاق الدنسة :« **ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك** » (البقرة : ١٣٨) وإن هذا التأخير الممتد إلى (٢٥٠٠ سنة) فى استجابة الدعاء الفعلية ليبرهن على أن المقصود إنما هو تكوين أمة ذات ميزات ومواهب حيوية بطريق التناسل الطبيعى فى بيئة خاصة كى تحمل رسالة الدين الإلهى لتكون الأمة مطهرة من النقائص الصناعية التى سببت الفقر فى الرجال الموهوبين خلال عهود خلت .

وعندما استتبت الأمور وتحققت الشروط والأسباب ، وتوافرت المؤهلات — بعث الله النبي الغالب ، فولدته آمنة بنت وهب من بنى هاشم واستجيب الدعاء الذى كان قد جرى على لسان إبراهيم قبل (ألفين وخمسمائة)

لقد أسكن إبراهيم بأمر من الله (هاجر وإسماعيل) فى مكان تقع فيه مكة فى هذا الوقت ، وكان المكان قاحلا جدباً ليس فيه إلا الحجارة الجرداء ، ولما انتهى ماء القربة واشتد الظمأ وأخذ اسماعيل يضطرب من الظمأ ظهر ماء زمزم فى أرض جدباء ، فكأن الله قد أعلن أنه لن يترك إبراهيم وإسماعيل بعد أن أرسلهما إلى هذا المكان الشاق .. إن هذا الأمر هو أمر الله وبالتالى سوف ينصره الله فى كل مرحلة حرجة حاسمة ، ولما بلغ إسماعيل عنفوان شبابه رأى أبوه فى رؤياه أنه يذبحه ، فأيقن أن ذلك أمر الله ، ورضى بذبح إسماعيل ، وأوشك على ذبحه ، ووضع السكين على رقبته ، حتى فداه الله بكبش عظيم ، وأمر الله بذبحه بدلا من إسماعيل .

ويعتبر هذا العمل فى الواقع إشارة من الله إلى أنه طلب أمراً عظيماً وتضحية كبيرة ، والغرض هو امتحان العاطفة والشعور وليس القتل أو الذبح ، بل هو توجيه الشخصية لغرض كبير آخر.

وعندما كبر اسماعيل تزوج بفتاة من قبيلة (جرهم) التى كانت قد عمرت مكة ، وذات يوم جاء إبراهيم من الشام راكباً فرسه ، ولم يكن إسماعيل فى البيت بل كانت هناك زوجه التى لم تكن تعرف حماها ، فسألها إبراهيم عن إسماعيل . فقالت : ذهب للصيد ، ثم سألها عن الحالة المالية فشكت من قلة المال والحياة الخشنة ، فودعها إبراهيم وقال لها : عندما يأتى إسماعيل بلغيه سلامى وقولى له « غير عتبة بيتك » ، وعندما سمع إسماعيل هذه القصة أدرك أن أباه جاء ليتفحص حاله وفهم أن كلمة « غير العتبة » إنما هى استعارة معناها (اهجر هذه الزوجة واتخذ زوجة أخرى) لأن الزوجة الموجودة لا تصلح لإيجاد جيل يريده الله لتنفيذ إرادته فى واقع الدنيا فطلق إسماعيل زوجته وتزوج امرأة أخرى ، ثم حدث أن عاد إبراهيم مرة أخرى راكباً فرسه ، ولم يكن إسماعيل موجوداً فى البيت هذه المرة أيضاً فسأل إبراهيم نفس الأسئلة ، فأثنت الزوجة الجديدة الثناء العاطر على إسماعيل وقالت : « لقد أعطانا الله خيراً كثيراً فله الشكر » ، فقال لها إبراهيم : عندما يأتى إسماعيل بلغيه سلامى وقولى له « ثبت عتبة بيتك » بمعنى أن هذه الزوجة الجديدة تصلح لتنفيذ إرادة الله التى اختطها لعباده ، فحافظ على علاقتك بهذه الزوجة الطيبة .

وهكذا فى منطقة عربية منزوية نائية أخذ جيل جديد يتكون من سلالة إسماعيل ، وتمثل ذلك الجيل فى النهاية فى قوم يدعون : بنى إسماعيل ، وبعث من هؤلاء القوم فى آخر الزمان محمد صلى الله عليه وسلم ، ليحمل هذا الجيل مسئولية التاريخ العظمى التى أراد الله أن تناط به .

إن هؤلاء القوم الذين نشأوا فى جزيرة العرب وشبوا فى الكثبان الرملية والصحارى القاحلة الجدباء ، كانوا يتمتعون بميزات يمكن تلخيصها فى كلمة واحدة هى « المروءة » ومعنى (المروءة) الشهامة والرجولة .. وهى كلمة كانت تستعمل لإظهار جوهر الإنسانية عند العرب .. يقول شاعر عربى :

إذا المرء أعيته المروءة ناشئاً   فمطلبها كهلا عليـه شديد

وقد درس المؤرخ « فيليب حتى » تاريخ العرب دراسة مستفيضة ، ومن حصاد دراسته يقول :

(.. إن القوم الذين أخرجوا إلى الوجود فى هذه القرون كانوا قوماً عجباً من أقوام هذه الدنيا ، وكانوا يتسمون بالميزات والمواهب التى من أهمها : الهمة والصبر والمثابرة والجلد ومراعاة حقوق الجيران والرجولة والشهامة والسخاء وقرى الضيوف واحترام النساء والوفاء بالوعد) .

خير أمة

ومن خلال عمل استمر فى التاريخ ٢٥٠٠ سنة ، أخرجت أمة كانت أحسن الأمم من ناحية الصفات الإنسانية « **كنتم خير أمة أخرجت للناس** » (آل عمران) ، وقد قال عبد الله بن عباس : إن المراد من « خير أمة » جماعة المهاجرين ، وهم الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة (تفسير بن كثير) . إذ كان المهاجرون فى الواقع رمزاً لهذه الجماعة .. لكننا نرى أن المراد من (خير أمة) المسلمون الذين نسميهم (أصحاب الرسول) ، والمراد أيضاً جميع الأشياع المخلصين للأنبياء على اختلاف عصورهم وأمصارهم ، بشرط واحد هو أن يكون دينهم الذى يتبعونه غضاً طرياً نقياً كأن عهده بالوجود أمس :

إن الأمة الإسلامية التي نشأت في بلاد العرب كانت تمتاز بميزة نادرة ، وهي ميزة إدراك الحق بمجرد الدليل ، والانقياد للحق البسيط الذي يخلو من عنصر البهرجة والتزييف .

إن تلك الأمة التي نشأت وشبت تحت الشمس الساطعة ، والسماء الزرقاء والفيافي الواسعة .. تمتاز بالقدرة على معرفة الحقيقة بشكلها البسيط المجرد عن الشوائب وهي تسلم نفسها إلى « الحق » الذي لا يعود عليها بفائدة دنيوية في الظاهر .

إن هذه الميزات هي التي جاءت في وصف عبد الله بن مسعود لصحابة الرسول ، بقوله :

(.. كانوا أفضل هذه الأمة ، أبرها قلوباً وأعمقها علماً وأقلها تكلفاً .. اختارهم الله لصحبة نبيه ولإقامة دينه ..).

وإن أهم ميزة تفقدها عصور الشرك هي النظر إلى الحق بطريقة سطحية فهي لا ترى الحق إلا في المظاهر البارزة والمحسوسات ، وقد حرمت من القدرة على رؤية الحق بطريقة مجردة من المظاهر .

وهذه هي العقبة التي كانت تقف في سبيل إدراك الحقيقة ، ولذلك ما بعث نبي إلا استهزأ به قومه .

إن المشركين لم يكونوا منكرين لله ، ولكنهم صهروا وجود الله في بوتقة (المحسوسات) ولم يكونوا قادرين على أن يعرفوا الله الموجود في الغيب وقد افترضوا أشياء من المحسوسات والمدركات على أنها تماثيل (لله) فأقبلوا عليها راكعين وساجدين ، سواء أكانت هذه المحسوسات أشياء مادية أم بشرية .. وهذا هو الضعف الذي أدى إلى إحجامهم عن الإيمان بالرسالة فكل نبي عندما يبعث يكون مجرد إنسان مثل الناس في زمانه ، ولا تحوطه الأمجاد التاريخية التي تحوطه بعد مضي الزمان .

دعا إبراهيم ربه

لقد دعا ابراهيم ربه ، فقال :

« رب اجعل هذا البلد آمنا واجنبنى وبنى ان نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيراً من الناس . فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم . ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » (إبراهيم : ٣٥ – ٣٧) .

ولقد بلغ استيلاء الشرك فى عهد إبراهيم عليه السلام الذروة ، وكانت المعابد تقام من أبنية فخمة كبيرة ، وقد تعذر الإنسان أن يفكر منفصلا عن الإطار الفكرى القائم على الشرك ، فأراد الله فى ذلك الزمان أن يخرج إلى حيز الوجود جيلا جديداً فى رمال وعثاء وجبال جرداء ، وكانت الخطة أن يتم تربية أفراد فى منطقة نائية ، حيث يسهل إدراك الحقائق ويرتفعون عن الظواهر ، ومن هذه الصفوة المنتخبة من الناس تم إخراج أمة وصفها القرآن بالكلمات التالية :

« ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون » (الحجرات : ٧)

ونحن لا يمكن لنا أن ندرك معنى هذه الآية إلا إذا رجعنا إلى الماضى عندما نزلت هذه الآية قبل ألف وخمسمائة سنة ، عندما حدث هذا الانقلاب العجيب ، وهو إيمان أصحاب الرسول ، إنهم أدركوا إلهاً غير مرئى فى زحمة الآلهة الكثيرة المرئية ، ثم ضحوا فى سبيله بكل ما كانوا يملكون من نفوس ونفائس ، إنهم أدركوا رسولا مجرداً من الزهو المادى من بين منارات العظمة الشامخة ، ثم سلموا نفوسهم إليه ، وإن ديناً غريباً مجرداً

من كل مكانة من العزة والجاه قد أصبح محبوباً لديهم إلى حد أنهم لم يعد صعباً عليهم تقديم أية تضحية - مهما كثرت - فى سبيله .

ومجمل القول أنهم أدركوا الصدق المجرد فى هذا الدين ، قبل أن يظهر التاريخ أمجاده وعظمته ، وقبل أن يصبح هذا الدين رمزاً للفخر القومى والحضارى .. وإن هذا الإيمان الصادق المجرد كان يعنى التضحية الكاملة ، دون انتظار أى مقابل من الحظوة أو المكانة أو النفع الذاتى أو القومى .

وناهيك ببيعة العقبة الثانية لفهم هذه الحقيقة ، فعندما ضاقت الأرض بالإسلام فى مكة ، بدأ الإسلام ينتشر فى المدينة حتى جاس خلال كل دار فيها تقريباً ، فأزمع فى هذا الوقت بعض الناس أن يذهبوا إلى مكة ، ويبايعوا بيعة النصرة على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويطلبوا منه ترك مكة إلى المدينة.

يقول جابر الأنصارى : عند ما بلغ الإسلام إلى كل دار فى المدينة تشاورنا وقلنا : إلى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذا الحال ، ثم ائتمرنا جميعاً فقلنا : حتى متى نترك رسول الله يلاحق ويطارد فى جبال مكة وحتى متى نتركه عرضة للسفلة الذين يحكمون بالظاهر السطحى ويقولون إنه ليس برسول الله ، ولو كان رسول الله لما رزىء بهذه المصائب .. وهكذا أزمعنا الرحيل إلى المدينة .

ففى هذه المرحلة الدقيقة الحاسمة من تاريخ الإسلام جاءت جماعة ينيف عددها على سبعين ، وبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكيف كانت هذه البيعة ؟ وكم كان الوضع مفعماً بالخطر .. ؟

إن هذا وذاك يظهر لنا عن طريق عضو بارز فى هذه الجماعة المؤمنة وهو كعب بن مالك الأنصارى .. إنه يقول : إننا أخذنا الطريق إلى مكة

باسم الحج مع قبيلتنا التى أرادت زيارة الكعبة ، فعرجت القبيلة على مكان بالقرب من مكة ، فلما أقبل الليل نمنا مع الآخرين ، وعندما انقضى ثلث الليل ، وكان الناس نائمين قمنا مستترين بناء على أمر رسول الله ، ومشينا إلى مكان محدد نتسلل تسلل القطا مستخفين(١)..

لكم كانت عجيبة تلك الساعة التى يتسابق فيها بعض الناس إلى إيمان بنبى رفضه قومه ، وحاربوه فى وطنه ، وأخرجوه من الطائف والدم يسيل من بدنه عندما رموه بالحجارة ، وقد رفضت جميع القبائل إعطاءه اللجوء والأمان .

فى هذه المرحلة الدقيقة اعترفت جماعة من المدينة بصدقه وآمنت برسالته ولبت دعوته ، وعندما نهض أنصار المدينة للبيعة سألهم سائل :

هل تدرون على ما تبايعون ؟ .. هذه بيعة على هلكة الأموال والأولاد . فقالوا : نعم على هلكة الأموال والأولاد ، وسألوا إن وفينا هذا العهد فما جزاؤنا ؟ .. قال رسول الله : الجنة . قالوا : مد إلينا يدك نبايع على ذلك.

هذه البيعة تعنى تسليم النفس بصدق لا شك فيه ، وتضحية بكل نفيس فى سبيل حق لم يشتد عوده .. وكان هذا حدثاً عظيماً لم تصافحه عيون السماء إلا مرة واحدة فى التاريخ .. لا قبله ولا بعده ..

ترك ما لا يغنى ، وعدم التعرض للمسائل غير الضرورية

عندما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هذه الدنيا كانت تلك المسائل موجودة وهى ما نعنى بها الآن (المسائل القومية) و(الوطنية)

(١) سيرة ابن هشام (بيعة العقبة الثانية) .

التي تثير الحركات ، وتكون القيادات وتؤثر هذه المسائل على نخبة المثقفين فيهتفون بها ويجعلون منها زعامة ، ويلهبون بها عواطف الشعب ..

لقد كانت هذه المسائل موجودة فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه لم يقبل عليها ، ولو أقبل على هذه المسائل القومية والوطنية لما كان ذلك التزاماً بمنهج الله ، ولربما كانت كافة الفرص التي وجدت من خلال عمل استمر ألفين وخمسمائة سنة عرضة للضياع .

لقد استولت الحبشة فى عام (٥٣٥ م) على المناطق الحدودية المجاورة لها من جزيرة العرب ، وعلى اليمن ، وكان أبرهة عاملا لملك الحبشة على اليمن ، وكان طائشاً لدرجة أنه أغار فى عام ولادة رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على مكة ، وأراد أن يحطم بناء الكعبة .

وقد سقط حكم الحبشة لليمن بعد ما استمر (٥٠ سنة) وتلاه حكم امبراطور الفرس الذى عين (باذان) عاملا على اليمن ، ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعلن نبوته بلغ ذلك الخبر كسرى الفرس ، فأمر عامله باذان أن يقابل ذلك الشخص الذى يدعى النبوة ، وأن ينصحه أن يكف عن دعوى النبوة ، وإذا لم يكف فعليه أن يبعث برأسه إليه « وإلا فابعث برأسه » (سيرة ابن هشام) .

ويتضح من متابعة هذه الأحداث أن الاحتلال الأجنبي للحدود قد أوجد مشكلات خطيرة .

وفى هذه الظروف كان الطريق مفتوحاً أمام رسول الله أن يلهب مشاعر القوم ضد الاحتلال الأجنبي ، وأن يثير النعرة الوطنية ولو فعل هذا رسول الله كما فعل قادة الأمة الإسلامية وسادتها فى هذا العصر لخالف منهج الله ، لأن التخطيط الإلهى كان يقتضى أن يتجنب الرسول طريق

النزاع والصدام ، وأن ينهض بمهمة الدعوة المجردة ، مخلصاً وجهه له سبحانه زاهداً فى المسائل التى نعبر عنها بالمسائل القومية ، وقد امتثل الرسول للتخطيط الإلهى فكانت النتيجة أن سجل التاريخ أن « باذان » نفسه قد اعتنق الإسلام ، واعتنقه معه معظم المسيحيين من سكان اليمن ، مما يعلمنا أن الهدف الذى قد لا يحققه زعيم قومى بحركة سياسية يمكن أن يتحقق بصورة أوسع وأعمق عن طريق الدعوة .

* * *

ويحدثنا التاريخ أن أبا لهب قد أصبح رئيس قبيلة بنى هاشم بعد وفاة أبى طالب ، جرياً على عادة القبيلة ، ومع ذلك فقد رفض القيام بحماية الرسول الهاشمى ، مما ألجأ الرسول إلى طلب حماية القبائل الأخرى .. ومن أجل ذلك ذهب إلى القبائل الكثيرة طالباً حمايتها ، فالتقى برئيس قبيلة تسكن على حدود البلاد اسمه « شيبان بن ثعلبة » طالباً مساعدته فقال له رئيس القبيلة : إن أرضنا متاخمة لأرض كسرى ، ونسكن هذه الأرض حسب شروط أخذها كسرى علينا ، وهى « أن لا نحدث حدثاً ولا نؤوى محدثاً ولعل هذا الأمر الذى تدعو إليه تكرهه الملوك .. » . (سيرة ابن كثير) .

ويتجلى من هذا أن النفوذ الأجنبى لم يحدث مسائل سياسية وقومية فحسب ، بل حال دون الدعوة ونشر الإسلام ، ولكن الرسول مع ذلك لم يتخذ طريق (النضال) بحجة أن الدعوة لا يمكن القيام بها إلا بعد تذليل هذه الصعاب ، وإزاحة العقبات الخارجية ، ولو أنه أثار الكفاح فى بادىء الأمر لخالف الخطة الإلهية ، لأن إرادة الله قضت أن يجعل الروم والفرس فى حرب وصراع مدة عشرين سنة ، حتى تنهك الحرب

البلدين وتعتصر دماءهما ، حتى يتيسر للمسلمين فتحهما بعد أن يتدربوا على غزوات محدودة مناسبة لقوتهم ، ولو اقتتل المسلمون فى طفولة تاريخهم لكانت النتيجة عكسية ، ولم تكن لتظهر الفتوحات الكثيرة المعروفة .

لقد هيأ الله أحسن الظروف والإمكانات لينبت النبات طبيعياً على الأرض ، ولم يبق إلا أن يؤدى المسلم واجبه على الأرض لتحويل هذه الإمكانات إلى واقع معاش ..

لقد وضعت العناية الإلهية التربة الخصبة على الأرض .. وإنها تربة لا توجد فى مكان آخر فى الكون المعلوم .. ولكن مع هذه الخصوبة فإن الثمرة لا تخرج إلا إذا وجدت الرطوبة والمياه .. وبدون هذه المياه سوف تبقى الصحارى فيافى جدباء .

وأنت أيها « الزارع المسلم » عليك أن تعى بحسك الإسلامى هذا ، لأن الطبيعة لن تعلن هذه الحقائق بمكبر الصوت ، بل تبينها بإشارات خفية وعليك أن تدرك هذا كله بلغة الإشارة ، فتقوم بزرع البذور فى الأرض أو ترويها ثم تبذر بذورها ، وهذا هو دائماً (طريق الداعى) وطريق الدعوة

إن الله خلق أحسن الأوضاع لدعوته فى محيط العرب ، ولكن كان من الضرورى أن تراعى الحكمة الربانية فى مسيرة الدعوة ، ولو خالفت خطة المسلمين الخطة الإلهية لما فازوا بهذا الانتصار والنجاح ..

• • •

الآخرة غايتنا :

إن المبدأ الأساسى لدعوة الرسول هو إعطاء الأهمية الكاملة لمسألة الآخرة دون أن يجعل أية مسألة من مسائل الدنيا عنواناً للدعوة ..

والسبب فى ذلك أن مسألة الآخرة هى المسألة الأساسية والجوهرية للإنسان ، وليست المسائل الأخرى إلا مسائل عابرة وإضافية ، ولا طريق لسعادة الإنسان دون العمل للآخرة ، كما لا طريق لشقائه إلا إهمالها.

ولأن كل نجاح وانتصار فى الحياة يتعلق بشخصية الإنسان ، فلهذا كانت الشخصية الحقيقية المستقلة تتشكل بعقيدة الآخرة العميقة التأثير ، حيث إن هذه العقيدة تعنى أن الإنسان لا يملك نفسه ولا هو حر فى تصرفاته وإنما هو فى كل حين يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه ، فمن شأن هذه العقيدة أن تنزع من الإنسان حريته الحيوانية ،وتقضى على ميوله نحو الإباحية والفوضى الأخلاقية ، وتجعله مقيداً ومسئولا .

ولو أن مسلماً تتبع آيات القرآن بذهن مفتوح خال من المخلفات والرواسب ، فسوف يرى أن مسألة الآخرة تشغل أكبر حيز من الفكر ، وهى رأس المسائل ، ومن خلالها ذكرت مسائل أخرى ، ولكنها جاءت عرضاً لا أصلا ..

وثمة مبدأ أساسى آخر يلزمنا للدعوة، وهو عدم إثارة نزاع مادى بين حملة الدعوة والمدعوين حتى لا يصبح المدعو (فريقاً) و(خصماً) ولو كان ذلك على حساب المصالح الشخصية . وهذا مثال رائع لذلك نقدمه من سيرة الرسول فى صلح الحديبية حيث أثارت قريش حرباً ضد المسلمين ، حتى أصبح المسلمون وغير المسلمين فريقين متخاصمين ، وأخذت أمور التأهب وجمع السلاح والعتاد الوقت كله .

فى هذا الوقت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ما طلبت قريش وأبرم معها معاهدة السلام لعشر سنين ، وكانت هذه المعاهدة فى الظاهر هزيمة للمسلمين ، ولذلك نظر بعض المسلمين إلى هذه المعاهدة نظرة

الازدراء ، وحسبوها ذلة ، ولكنها كانت عند الله فتحاً مبيناً ، لأنها مكنت من الانتهاء من جو التوتر ، والنزاع والخصومة ، وبالتالى استؤنفت علاقة الداعى والمدعوين المسلم وغير المسلم .

وما إن أصبح العرب فى مكان (المدعو) بدلا من مكان (الخصم) حتى بدأ الإسلام ينتشر بينهم بسرعة ، حتى بلغ عدد المسلمين فى غضون سنتين ضعفين ، وغدت مكة التى تعذر فتحها بالحرب مفتوحة للمسلمين . . . بالدعوة . !!

التسامح والعفو

وجانب آخر نستجليه من دعوته صلى الله عليه وسلم وهو ضرورة الحرص على التسامح والعفو مع المدعو على الرغم من الانتصار عليه ، ونحن نرى أمثلة هذا السلوك المتسامح سائدة فى السيرة النبوية ، لقد كانت قريش تحت تصرفه وقبضته بعد فتح مكة ، وقد أذاقوا المسلمين قبل الفتح ألواناً من الظلم والقسوة ، وعرضوهم لكل شر وبلاء ، ولكن رسول الله لم يعاقب أحداً على جرائم اقترفها فى الماضى ، بل عاملهم معاملة العفو والتسامح .. ولما حضرت قريش طائعة قال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل بعض الناس لشدة فسادهم ، ثم عفا بعد ذلك عن كل شخص طلب العفو منهم ، أو شفع فيه أحد المسلمين

ولقد كان وحشى بن حرب فى غزوة أحد قد قتل حمزة عليه السلام وراحت هند بنت عتبة تمثل بجثته ، ولما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك خرجت كلمة تهديد من لسانه فى ذلك الحين وهى (لئن أظهرنى الله عليهم لأمثلن بثلاثين رجلا منهم) (تفسير ابن كثير الجزء الثانى ص ٣٥٢) وقد كانت الجماعة التى أمر الرسول بقتلها تضم من هؤلاء وحشياً وهنداً ، ولكن عندما وصلا إليه ، وطلبا العفو عفا عنهما ، لأن هذه الطريقة فى التسامح كانت تلائم منهج الله.

إن مبدأ التسامح والعفو هو عين الحكمة ، فإن الإنسان ليس حجراً فإن الحجر إذا انكسر لا يظهر رد الفعل تجاه الأحجار الأخرى ، وأما الإنسان فهو جزء لا يتجزأ من مجتمع حيوى ، فإذا أصيب الإنسان بضر

أو قدم ظلماً أو عدواناً تثور ثائرة الآخرين من حوله ، فتتفشى الأعمال العنيفة والتخريبية .

إن الوقت الذى ينبغى أن يبذل فى أعمال البناء بعد الفتح سوف يضيع فى مقاومة المفسدين الأشرار ، ولهذا تعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعفو مع جميع الأعداء بعد فتح مكة ، وبذلك أغلق أبواب الفساد والأعمال الانتقامية التخريبية . وليس ذلك فحسب ، بل إن معظم هؤلاء اعتنقوا الإسلام ، وأصبحوا مصدر قوة للدين ، ومن أمثلة ذلك عكرمة ابن أبى جهل(١) .

وعندما يستتب الفتح ويتحقق النصر يأتى دور إصلاح الشئون الاجتماعية ولم يتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم طريق الطفرة والصراع بل عالج الأمور بصبر وتأن .

لقد كانت قريش وريثة الدين الإبراهيمى ، ولكنها شوهت صورة الدين الإبراهيمى (الحنيفى) وابتدعت فيه بدعاً كثيرة ، منها ما ذكرناه سلفاً من أمر النسىء أى تأخيرها لأشهر الحج عن شهر ذى الحجة عن انتقاص أحد عشر يوماً من كل عام قمرى .. إلى آخر ما أوردناه سلفاً . ومع ذلك لم يصلح الرسول خلل النسىء بمجرد فتح مكة ، بل صبر حتى استدار الزمان كهيئته ، وصلح الخلل الزمنى بتتابع الأيام ، فأعلن الرسول أن هذه هى أيام الحج الحقيقية وسيكون الحج مستقبلا فى هذه الأيام الصحيحة .

ومن هذه الأمثلة يتبين لنا كيف لازم رسول الله الحكمة الربانية وربط دولابه بدولاب سنن الله ، ووافق منهج الله فى جميع أعماله ،

---

(١) وعبد الله بن سعد بن ابى السرح احد فاتحى المغرب واولهم .

ولهذا أسفرت جهوده – عليه الصلاة والسلام – عن نتائج عظيمة غيرت مجرى التاريخ .

إننا نستطيع تقسيم تاريخ الدين فى التاريخ إلى عهدين كبيرين : الأول قبل بعثة النبى محمد فى القرن الرابع الميلادى .. والثانى بعد بعثته .

وإن الكتب التى نزلت قبل بعثته ألقيت مسئولية حفظها على الأقوام التى أنزلت عليها هذه الكتب ، ولذلك وردت كلمة الاستحفاظ منسوبة إليهم « **بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء** » (المائدة : ٤٤) ولكن الله ضمن حفظ القرآن ونسب ذلك إليه : « **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** » (الحجر ٩)

وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يهزم الشرك وينشر التوحيد ويحقق هيمنة الفكر التوحيدى فى العالم : « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله** » (الأنفال : ٣٩)

فكأن المعونة الإلهية تشترط لهذه العلل أن يخلق الله حالة مواتية على نحو ما حدث خلال ألفين وخمسمائة سنة .

وقد استغل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الرصيد التاريخى ، فجعل الشرك مغلوباً منهزماً وجعل الفكر التوحيدى غالباً منتصراً .

وبفضل جهود رسول الله وأصحابه أصبح الشرك مغلوباً إلى الأبد ، ولا أمل الآن – بعون الله – فى النهوض به واستعلائه كفكر غالب – غير أن التوحيد أيضاً فقد مكانه كفكر غالب فى هذا العصر ، وحل محله الفكر العلمانى ، أى الفكر الذى لا علاقة له بوجود الله ، وتبوأ الفكر التوحيدى المكان الخلفى .

إن العمل الحقيقى الذى لا محيص عن الاضطلاع به هو محاولة درء الإلحاد ومحاربته ، ليتبوأ التوحيد المكانة اللائقة به من جديد .

لقد كان الله على علم بأن دوراً جديداً للإلحاد سوف يأتى مستقبلا ، فتحركت معونته من جديد ، حيث أوجد الله فى الألف سنة الماضية حالة تساعد على دعوة التوحيد من جديد ، ولئن بدا أن الإلحاد لا يزال غالباً ومسيطراً على العقول المفكرة فإن الله قد خلق أحوالا لو استغلت استغلالا صحيحاً لعاد التوحيد إلى مكان القيادة من جديد .

لقد تحققت الغلبة للتوحيد فى المرحلة الأولى باستعمال القوة كقوله : « **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة** » (البقرة : ١٩٣) « **بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق** » (الأنبياء : ١٨)

وفى المرحلة الثانية تحقق هذا العمل بالبيان والتبليغ ، كما تشير إلى ذلك الآية القرآنية : « **سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . أولم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد** » (فصلت : ٥٣)

الثورة الفكرية

وقد حدثت فى هذا الزمان ثورة فكرية .. فما هى هذه الثورة ؟؟..

وللإجابة على هذا السؤال نقول إنه يستعصى استعمال كلمة معبرة عن مدلول هذه الثورة لكننا نعبر عنها بكلمة « الثورة العلمية » .. وقد أسفرت هذه الثورة العلمية الحديثة ولأول مرة فى التاريخ البشرى عن تغييرات فكرية تلائم الدعوة إلى التوحيد . ولو استغلت هذه التغييرات لتحقق بالجهاد القلمى واللسانى ذلك المقصد الذى اضطر المسلمون الأوائل فى سبيله إلى استعمال السيف .

إن هذه الثورة العلمية الجديدة ليست إلا رافداً أو نتاجاً فرعياً للثورة الإسلامية القديمة ، فإن الله خلق بواسطة الثورة الإسلامية أسباباً أخذت تعمل من خلال التاريخ حتى وصل هذا العمل إلى إحداث ثورة نسميها بالثورة العلمية الحديثة ، كما ذكرنا قبل ذلك .

وبفضل هذه الثورة أصبح ممكنا أن تكون الأشياء والمخلوقات موضوعاً للبحث والتنقيب ، وقد بدأ هذا العمل بشكل أولى فى العهد الأول عندما كسفت الشمس ذات يوم فقال البعض : لقد كسفت الشمس لموت ابراهيم ابن الرسول صلى الله عليه وسلم .. فقال الرسول :(إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته) .

وبذلك نفى رسول الله صلى الله عليه وسلم عنصر الأسطورة فى العلم .

والغريب أن هذا التيار الفكرى وصل إلى أوربا منفصلا عن الدين وسبب ثورة علمية جديدة .. لكنها — نتيجة الموقف الكنسى من العلم — كانت ثورة ملحدة .ومع ذلك فقد كانت أكبر فائدة لهذه الثورة أنها أزالت عهد الأوهام والخرافات القائمة على الفروض والقياسات بدلا من الحقائق (فمثلا اعتقاد أن الشمس والقمر يكسفان لوفاة إنسان .. وهم) .

وقد كانت الخرافات أكبر عقبة فى سبيل اعتناق الإسلام ، فإن المؤمن بهذه الخرافات لا يستطيع أن يميز بين الإسلام وغير الإسلام ، بل يعتقد على أساس الفروض المسبقة وبدون دليل أن أحدهما صحيح والآخر باطل . فمثلا يقف الإسلام كدين موثوق به تاريخياً ، ولكن جميع الأديان الأخرى لا تستند إلى قوة تاريخية ، ولكن الإنسان الذى عاش عهد الأوهام ، لا يولى هذه الحقيقة أى أهمية .. بينما وقف العهد الجديد موقف التأييد للحجة التاريخية ولاعتبار الصحة التاريخية ولذلك برز إلى حيز الوجود

فن جديد يدعى (النقد الأعلى) « Higher Critucison » وبموجب هذا الفن الجديد برهنت هذه الحقيقة على أن الدين الإسلامى هو الدين الوحيد الذى يحظى باعتبار تاريخى حيث تفقد الأديان الأخرى الاعتبارية التاريخية .

ولقد حاولت العقلية العلمية كشف الكون فى ضوء التجربة والمشاهدة وبالتالى كشف القناع عن حقائق طبيعية تؤيد تعاليم الإسلام من منظور علمى ، فمثلا كشف العلم الحديث أن قانوناً واحداً للطبيعة يسيطر مفعوله على الكون كله ، وأن هذا القانون الذى تخضع له الأرض تخضع له سائر الأشياء فى الكون ..

ويثبت لنا هذا أن خالق هذا الكون واحد ولا مجال لإلهين أو أكثر وقد ثبت أن الفلسفة القديمة كانت عقبة علمية أمام قبول دين التوحيد على امتداد التاريخ ، وكانت الفلسفة تتبوأ مكانة العلم الغالبة فى قديم الزمان . وقد كانت تمثل الأرضية الفكرية لجميع المثقفين ، وعلى ذلك الأساس كان تفكيرهم ، فكانت الفلسفة عقبة فى سبيل الاعتراف بمدأ التوحيد .

كانت الفلسفة تستهدف منذ قديم الزمان البحث عن الحق ، ولكن الواقع أن الفلسفة رغم تاريخها الطويل الذى يمتد إلى خمسة آلاف سنة ، منيت بالفشل الذريع فى الوصول إلى الهدف المتوخى ، والسبب فى ذلك أن الفلسفة لم تستطع أن تؤمن بمحدودية الإنسان .. لقد حاولت ارتياد آفاق لا نهائية مع أن الإنسان لا يستطيع أن يبلغ إلى آفاق لا نهائية ، من جراء محدوديته .

لقد حاولت الفلسفة ذلك قروناً طويلة .. ولكن بدون جدوى ...

إن العقائد الأساسية التى يقوم عليها دين التوحيد ، حقائق معلومة ومشاهدة بطريقة أكمل للإنسان .. مع أنها « حقائق غيبية » وإن الإنسان بسبب قدرته المحدودة لا يستطيع أن يدرك تلك الحقائق . وإن أكبر عمل أداه العلم الحديث من الناحية الدينية هو أنه اقتلع هذه الفرضية من جذورها وبرهن على أن قدرة الإنسان محدودة ، وأنه لا يستطيع أن يدرك الحقيقة بكاملها .

إن الأرض الفكرية التى خلقتها الفلسفة القديمة أصبحت فكرة (دفاعية) وإن الأرض الفكرية التى عثر عليها العلم الحديث أصبحت فكرة (هجومية) فى العالم العلمى .

إن هذه الثورة التى حدثت فى العقول مهدت السبيل لدين التوحيد . وإن فكرة المحدودية تحظى ولو بطريقة غير مباشرة بتأييد علمى ، ولامناص للإنسان من أن يعترف بما يخبره به الرسل لإدراك الحقيقة العليا ، وقد أصبحت مقولة أنه لا إيمان إلا بالمشاهدة، مقولة مجردة من النظرة العلمية ، وينسحب هذا على القول بأننا لن نؤمن بالآخرة والوحى والإله ما لم نشاهدها بأعيننا فى وضح النهار .. إن كل ذلك مخالف للعلم الحديث ، فإنه لأول مرة فى التاريخ المعلوم حدث أن العلم الإنسانى أثبت بنفسه أن (علم الإنسان محدود) وأنه سيظل (محدوداً) ، فإن الإنسان عندما يحاول فهم الكون فسينكشف له أن الكون أكثر تعقيداً من أن يحيط به عقله .

إن الفهم العلمى مهم جداً من ناحية الفكرة الإسلامية لأن أهمية الرسالة تثبت بذلك ، فإن الإنسان من جهة يريد الوقوف على حقيقة الكون ، ولكنه من جهة أخرى لا يستطيع — ولن يستطيع — أن يدرك الحقيقة إلى آخر مداها بسبب محدوديته ... إن هذا الفراغ الموجود فى الحياة الإنسانية يدل على أن الإنسان يحتاج إلى مرشد أعلى ، وبتعبير آخر :

إن هذا الاعتراف الذى أثبته العلم أكد ضرورة الرسل والرسالات السماوية للإنسانية كلها ..

لقد كان الإنسان محروماً من حرية إبداء الرأى ، والسبب فى ذلك أن السلاطين والأباطرة قد أصبحوا موضع القداسة ... إن الرجال الذين يصلون إلى مكان أعلى ، كان الناس يحسبونهم مقدسين ويحيطونهم بهالة من القداسة والتمجيد ، وكان رأيهم هو المقدس ، وكان لهم حق أن يفرضوا آراءهم ورغباتهم على الآخرين . ولكن ثورة التوحيد قضت على طغيان الإنسان على أخيه الإنسان ، وأعلنت أنه لا فضل لإنسان على آخر إلا بالتقوى ومن هذا المنطلق ظهر تيار فكرى اكتمل اكتمالا سياسياً عندما وصل إلى أوربا ، فنشأت حركات تقول بأن الناس سواسية ، وتم الاعتراف بهذا الحق الإنسانى ، كما اعترف بحق الناس فى التعبير عن أفكارهم بحرية .

ولأول مرة فى التاريخ أصبح من الممكن لإنسان أن ينشر دين التوحيد ولا يخاف من البطش والقبض(١) . ولقد كشف العلم للإنسان نعماً مادية أودعها الله هذا الكون ، وكانت مختبئة عن نظر الإنسان ، ومن أهمها (من ناحية الدعوة) وسائل المواصلات بما فيها من المطابع والإذاعات المرئية والسمعية ، والمواصلات الحديثة السريعة مثل القطارات والسيارات والطائرات (والتلكس والهاتف) .. إن هذه المخترعات نعمة يمكن أن تخدم الإسلام من حيث استعمال وسائل المواصلات والنقل الحديثة لنشر الدعوة الإسلامية على صعيد عالمى .

إن هذه الفرص الغالية التى ظهرت خلال جهد دام ألف سنة فى التاريخ إنما هى فرصة للإسلام والمسلمين الآن ، فكما خلق الله أوضاعاً مواتية

---

(١) لعل هذا صحيح فى دول العالم الحر وبعض الدول الأخرى (المراجع) .

فى الماضى لغلبة الإسلام الأولى بعمل دام ألفين وخمسمائة سنة ، كذلك خلق الله فى هذا العصر أوضاعاً مواتية بعمل دام ألف سنة تمهيداً لغلبة الإسلام مرة ثانية ، غير أن هذه الأوضاع والأحوال لا تستطيع أن تتحول إلى واقع ملموس بدون جهد دءوب ومحاولة مخلصة .. ولأجل تحويل هذا الإمكان إلى واقع ، لابد من أن تظهر ثلة من الرجال الإيجابيين .. وإذا ظهر هؤلاء الرجال — فإن الإسلام سينال الغلبة الفكرية فى المستقبل المنظور من جديد كما سبق له أن نال الغلبة الفكرية على الشرك فى القرن الأول

إن هذه الإمكانات التى ذكرناها آنفاً لتترقب جماعة تستغلها فى تحقيق هيمنة الإسلام فكرياً . ولكن لتعاسة الحظ لم تظهر حتى الآن أية جماعة تنهض بهذه المسئولية . ومما لامراء فيه أن القرن الماضى قد شاهد خروج جماعات وحركات لا تحصى ، ولكن هذه الحركات كلها ظهرت كرد فعل للأحوال الطارئة ، ولا سيما الأحوال السياسية .

إنها لم تظهر بدافع الشعور الربانى الذى ظل يتفاعل على مدى الألف سنة الماضية ، والذى بلغ مداه خلال القرن الرابع عشر الهجرى.

لقد ورد فى كتب السيرة أنه فى موقعة بدر عندما جرت الملحمة بين أهل الكفر الأقوياء وأهل الإيمان الضعفاء ، خر رسول الله صلى الله عليه وسلم ساجداً على الأرض لفرط العاطفة الإيمانية ، ودعا الله أن ينصره فى هذه الآونة الحاسمة ، وقد سجل التاريخ كلمة ترددت على لسانه صلى الله عليه وسلم ، هى : (اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد بعدها فى الأرض) .

لقد كانت هذه الكلمة تعبيراً عن الحقيقة دون مبالغة ، فمما لا شك فيه أن هذه الأرواح المؤمنة التى لا تتجاوز (٣١٣ نسمة) فى بدر ،

لم تكن نموذجاً للعامة من النوع البشرى ، بل كانت هذه العصابة هى الجماعة التى انتهت إليها مسيرة تاريخ بلغ ألفين وخمسمائة سنة ..

ولنا أن نقيس على ذلك أن هذا العصر يحتاج إلى عصابة جديدة ترث (من ناحية الشعور) تاريخ ألف سنة خلت .. ومن ناحية العمل والأخلاق تصمم على تحويل هذه الإمكانات إلى أرض الواقع ، ومن ناحية الجد والإخلاص تصل إلى درجة لا تزعزعها أية زلزلة من مكانها .

عندئذ نكون قد ربطنا (دولابنا) بسنن الله وأصبحنا أهلا لنصره وعونه

أصحاب الرسول.. كيف كانوا؟

لقد ورد فى القرآن قوله تعالى :

« فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم فى شقاق » (البقرة : ١٣٢)

يتبين من هذه الآية أن أصحاب الرسول ليسوا إلا مسلمين يمثلون نماذج حقيقية للحق .

إن الإيمان الذى ينال درجة الاعتبار عند الله هو الإيمان الذى يشبه إيمان الصحابة ، وأى نوع من الدين والإيمان يختلف عما كان عليه الصحابة لا براءة له من الله .

وفى هذا المقام الوجيز نسرد بعض سمات الصحابة وخصائصهم :

أولا : لقد أحب الصحابة الدين أكثر من كل شىء :

لقد ذكر القرآن هذه الميزة من مزايا أصحاب الرسول فأخبر أن الدين أصبح عندهم أحب وأثمن من كل شىء وأن الحب الشديد يعتبر درجة أعلى وأسمى فى العلاقات ، فإذا تعلق قلب الإنسان بشىء لدرجة الحب أصبحت هذه العلاقة بديلا عن كل نقص أو حرمان ، وتحرك عقل الإنسان له ، وأدرك كل أمر يحبه بدون إرشاد أو تعليم ، إنه يعمل من تلقاء نفسه لمشيئة المحبوب ، ويعرف بنفسه ما لا ينبغى له أن يعمله دون أن يزود بخارطة عمل .

إن أصحاب الرسول لم يكونوا أناسا غير عاديين ولم يكونوا مخلوقات فوق الإنسان ، بل كانت خصيصتهم أنهم أحبوا الدين أكثر مما أحبوا أنفسهم

إن الصحابي العادى فى ذلك الزمان لم يكن يهمه بناء مستقبله ، ولكن كان يهمه مستقبل الدين ، وكما أن العادى يبذل ماله فى أموره الذاتية ، كان الصحابة يبذلون أموالهم فى سبيل الدين ، وبفضل هذه السمة العظيمة سجلهم التاريخ كجماعة أحلت الإسلام محل الانتصار الأسمى والأعلى .

ثانياً : عرفوا الرسول قبل شهادة التاريخ له :

وميزة أخرى تبعث على التأمل والدهشة .. إنهم عرفوا رسولا معاصراً لهم وانضموا إليه .. وهذا الأمر من الصعوبة بمكان إلى درجة أنه لم يسبق نظير لهذا الواقع على مستوى الجماعة الكبيرة ، وقد شهدت الأزمنة القديمة فى جميع أطوارها أن الناس استهزءوا برسلهم وكفروا بهم ، وقد جاء فى « الكتاب المقدس » : (إنكم ازدريتم رسلى) . ومن كان هؤلاء المزدرون؟ إنهم كانوا يؤمنون بالوحى والرسالة ، وإنهم كانوا أصحاب تكايا وزوايا باسم الأنبياء ، وكانوا يحتفلون احتفالات دينية كبيرة ، ولكن كل هذه النشاطات كانت باسم الأنبياء الأقدمين ، وأما نبى الزمان فلم يكن نصيبه منهم إلا الاستهزاء والازدراء .

لقد كفر اليهود بالمسيح عليه السلام رغم إيمانهم بموسى عليه السلام ، وكفر النصارى بمحمد صلى الله عليه وسلم مع أنهم كانوا يحيطون المسيح بالتجلة إلى درجة العبادة ، وكذلك رمت قريش الرسول صلى الله عليه وسلم بالحجارة وأخرجته من مكة مع أنهم كانوا يفتخرون بأنهم ورثة إبراهيم .

والسبب فى ذلك كله هو أن نبوة الأنبياء الأقدمين تغدو نبوة ثابتة لكونها مصحوبة بوقائع التاريخ الطويل ، حتى لا تكاد تنفك عن التراث

القومى لقوم أو جماعة . فإن النبى الذى يبعث فى قوم يكون بطلا من الأبطال للأجيال القادمة . فيكون الإيمان به مرادفاً للاعتداد بالتراث القومى فمن ذا الذى لا يؤمن بذلك النبى ؟ .. ولكن نبوة نبى الوقت تكون مثاراً للجدل والنزاع وتكون ستائر الالتباس مسدولة عليه ، ويضطر الإنسان للإيمان به إذا نظر إلى الحقيقة من وراء الستار : ولا يؤمن به إلا ذلك الشخص الذى دفن أنانيته ، ويكون بذل الأموال فى سبيله بذلا فى سبيل أمل لم تتحقق مصداقيته التاريخية .

ولكن هؤلاء الصحابة الكرام كانوا أناساً آمنوا برسولهم المعاصر ، كما يؤمن الناس بالرسل الأقدمين .

ففى غزوة الخندق وقد اشتد الحصار ولم تتوافر المطالب الأساسية قال واحد من المسلمين من شدة المعاناة : «كان محمد يعدنا كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يأمن أن يذهب إلى الغائط » (سيرة ابن هشام ، الجزء الثانى ، ص ١٤٤) . وكان وعد الرسول فى وقت غزوة الخندق (عندما قال هذا الرجل قولته) وعداً لا يتجاوز الكلمة ؛ ولكن الوعد أصبح الآن وعداً منجزاً متحققاً ، لقد آمن الصحابة بهذا الوعد قبل أن يتحقق وآمنوا بالرسول قبل أن يؤكد التاريخ صدق وعده ، ولكننا نؤمن بهذا الرسول بعد أن صدقه التاريخ .. والبون واسع بين الإيمانين ، ويختلف كل واحد منهما عن الآخر اختلافاً لا نهاية له ، أما فى هذا العصر فليس المسلم وحده ، بل إن الكافر المنصف لا يسعه إلا أن يعترف بأن محمداً كان أكبر شخصية على امتداد التاريخ ، ولكن هذا الاعتراف فى حياته صلى الله عليه وسلم كان من أصعب الأمور ، ومن اعترفوا به كانوا من عجائب الناس ، وقد حالفهم التوفيق .

ثالثاً : آمنوا بالقرآن فى عهد الصراع :

ذكرت كتب السيرة أن أصحاب الرسول كانوا يأخذون ما تم نزوله من القرآن ويأتون به الناس ويتلون عليهم الآيات .. وكانت هذه هى طريقة الدعوة التى اتبعها أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا ليس أمراً يبعث على الإعجاب عند الإنسان المعاصر .. ولكن إذا رأيته من منظور العهد الماضى فستندهش وتستيقن أن هذا أمر لم يسبقه ولم يعقبه نظير فى التاريخ على مستوى الجماعة .

إننا عندما ننطق بكلمة « القرآن » الآن ونعنى به كتاباً سجل التاريخ إعجازه على مدار القرون الأربعة عشر . ويؤمن به مئات الملايين من الناس فإن الانتماء إلى هذا الكتاب أصبح الآن أمراً يبعث على الفخر والاعتزاز ، ولكن القرآن لم يحتل هذا المكان من الاحترام فى بداية نزوله ، وكان ثمة أشخاص يتقولون أن محمداً ألف هذا الكتاب بلحمة الحكايات والقصص وسداها ، وبإمكاننا أيضاً أن نفعل ذلك « **لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين** » (الأنفال ٣١)وكان ثمة أشخاص يقولون أن محمدا يملك بعض الأحاديث ويرددها صباحاً ومساءاً « **وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا** » (الفرقان ٥)

فإن معرفة القرآن وقت نزوله إنما هى إطلالة على المستقبل فى زمان الحال وإنما هى اعتراف بحقيقة قبل أن تثبت للجميع ، وفى هذه المرحلة كان من الصعب جداً أن يقدم هذا الكتاب ككتاب دعوة لأن ذلك يقتضى التفانى فى عظمة الله والاعتراف بشخصية الرسول وإنكار الذات .. إنه الاعتراف بشخصية لم تلمع بعد فى أفق التاريخ .

عندما أسلم لبيد الشاعر العربى الشهير تخلى عن الشعر ، ولما سئل لماذا عزفت عن الشعر ؟ .. أجاب : « أبعد القرآن ؟؟ .. ففى وقتنا هذا

عندما يترك شخص قرض الشعر ويقول هذه الكلمة فإنه يحظى بدرجة من السمعة والشعبية ، ولكن شتان بين هذا القول فى هذا الزمان ، وبين القول الذى قاله (لبيد) وقت نزول القرآن .

إن هذه هى الحقيقة التى تعرض لها القرآن فى هذه الآية :

« **لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا** » (الحديد ١٠)

رابعاً : أنفقوا أموالهم فى سبيل دين لم يظهر دوره بعد :

روى ابن أبى حاتم قصة صحابى فى الكلمات الآتية :

« عن عبد الله بن مسعود قال : لما نزلت هذه الآية « **من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له** » (الحديد ١١) قال أبو الدحداح الأنصارى : يا رسول الله : إن الله ليريد منا القرض ؟ قال : نعم يا أبا الدحداح . قال : أرنى يدك يا رسول الله . قال : فناوله يده ، فقال : إنى قد أقرضت ربى حائطى وله حائط فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها . قال : فجاء أبو الدحداح فناداها : يا أم الدحداح .. قالت : لبيك . قال : اخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل . فقالت له : ربح بيعك يا أبا الدحداح . ونقلت منه متاعها وصبيانها ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كم من عذق رواح فى الجنة لأبى الدحداح » (تفسير ابن كثير ، المجلد الثالث ٤٤٨) .

هذه قضية نموذجية تدلنا على أن الصحابة كانوا فرحين بتقديم التضحيات فى سبيل دين آمنوا به ، ولنستعد إلى الذاكرة أن هذا الحدث كان قبل أربعة عشر قرناً ، وليس من الغريب أن أنفق شخص مثل هذا الإنفاق فى هذا الزمان ، فإنه ينال من الاحترام والتقدير بحيث يعود عليه إنفاقه

بمثل الذى أنفقه أو أكثر ، ولكن الأمر كان مختلفاً فى زمان الصحابة ، فإن بذل الأموال فى سبيل الدين فى ذاك الوقت كان مما يثير الناس عليه ويستعديهم ضده فيلقبونه بالمجنون ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك لأنهم دفنوا ذواتهم تحت حجارة أساس هذا الدين ، وإن تأثير هذا الدين الناشىء الغريب كان مغامرة ، لأن صدقه كان أمراً مشتبهاً فيه ، فإن التاريخ الرائع لهذا الدين لم يكن قد ظهر إلى الوجود بعد .

خامساً : آثروه على أنفسهم حتى فى السيادة

كان عبد الله بن أبى شيخ المنافقين من دهاة العرب ويتمتع بنفوذ كبير فى المدينة ولما أراد أهل المدينة حسم جميع خلافاتهم ودعم وحدتهم ، انتخبوا عبد الله بن أبى ليجعلوه ملكاً عليهم ويلبسوه تاجاً رمزاً لاعترافهم به ملكاً ، وكما يقول ابن هشام : « فأما عبد الله بن أبى فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه ثم يملكوه عليهم » (سيرة ابن هشام الجزء الثانى ص ٣١٦)

ولم يكد ينتهى عمل التتويج حتى وصل الإسلام إلى المدينة وشهد أهل المدينة بصدق هذا الدين ، وجاس الإسلام خلال الديار ، ثم وصل وفد من أهل المدينة إلى مكة واستمع إلى الرسول واستشعر أعضاء الوفد أن محمداً صلى الله عليه وسلم يمثل أحسن شخصية لإدارة الحياة الاجتماعية بالمدينة ، فعرضوا عليه نيابة عن جميع أهالى المدينة السيادة على المدينة .. هذا الواقع الذى سجله التاريخ بعنوان « بيعة العقبة الثانية » .

لم يكن ذلك الواقع حدثاً هيناً بل إنه يرادف وضع الإنسان (تاج نفسه وعرشه) على رأس شخص آخر غريب عنه . ويندر نظير هذا الواقع فى الحياة القبلية القديمة .

إن انتخاب سيد وزعيم من خارج القبيلة ، والقوم لا يزالون يعتبرون ذلك من الصعوبة بمكان ، كان أصعب بكثير فى قديم الزمان منه فى عصرنا فإن هذا الواقع عندما حدث لم يكن محمد محاطاً بهالات التمجيد والإجلال بل كان محمد آنذاك شخصاً أخرجه قومه من وطنه ، ولم يقترن به مجد الآماد والعصور ، وكان شخصاً أثير حوله الجدل والنزاع ، كان مسلوب البيت والمتاع ، فكان الانضواء إليه يعنى الحرمان من كل شىء والحصول على خصومة القوم وعداوتهم . لقد أصبح من الميسور فى القرن العشرين لأى « برنارد شو » أن يعرض قيادة أوربا على محمد رسول الإسلام ، ولكن كان من العسير تماماً فى القرن السادس الميلادى الاعتراف برسالته وقبوله كإمام وأمير وزعيم .

سادساً : عرفوا حدودهم :

كان من عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يشاور صحبه فى دقيق الأمور وجليلها ، فكلما جد أمر يجمع أصحابه ويقول : أشيروا على أيها الناس . ومع أن هذه مشورة صريحة ، لكن الناس كانوا يظلون صامتين حتى يقوم أبو بكر ويبدى رأيه فى موجز من القول ثم يجلس ثم يقوم عمر ويعرب عن رأيه ، ثم يجلس .. ولا يتكلم إلا عدد قليل من الناس فيتم القرار بإجماع الآراء ، وجرت هذه العادة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجمع أبو بكر الناس ويستشيرهم فيخيم الصمت حتى يقول عمر شيئاً فيقول بعض الصحابة من أراد منهم أن يقول ومن ثم يتقرر الأمر بالإجماع ، وبعد عمر رضى الله عنه تزايد المسلمون من غير الصحابة وتغيرت العادة ..

إن هذه العادة عادة بسيطة فى الظاهر ، ولكن لا يوجد مجتمع فى

التاريخ نهج هذا المنهج ولا يمكن العمل وفق هذا المنهج إلا إذا أصبح المجتمع مدركاً لحدوده ، ويعترف فيه الرجل بكمال غيره وعجز نفسه ، ويرى نفسه بنظرة واقعية أنه محدود للغاية .

أضف إلى ذلك أن أبا بكر وعمر لم يكونا الشخصين اللذين عرفناهما فى التاريخ الآن ، إنهما كان آنذاك معاصرين للمسلمين .. بكل طبيعة المعاصرة ومع ذلك فجيل الصحابة وحده هو الذى استطاع تجاوز هذا الحجاب الصعب حجاب المعاصرة ، وقد سجل أصحاب الرسول هؤلاء أنهم الذين سجلوا هذا التفرد الذى لا قياس له فى التاريخ .

سابعاً : تساموا عن الحقد والبغض :

فى غزوة ذات السلاسل بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم أولا كتيبة تحت قيادة عمرو بن العاص . ويقع هذا المكان فى ضواحى الشام ، فلما قدم عمرو بن العاص يستفسر عن أحوال العدو ظهر له أن كتيبته الصغيرة لا تكفى لجيش العدو الكثير ، فأرسل شخصاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليخبره أن الجنود المسلمين قليلون وهم فى مسيس الحاجة إلى مدد عسكرى فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بكتيبة أخرى مؤلفة من مائتى شخص وعلى رأسها أبو عبيدة بن الجراح .

ولما التقت الكتيبتان وانضما فى كتيبة واحدة أثير الخلاف حول من يكون الأمير ، فقال عمرو بن العاص : إن الكتيبة الأخرى أتت لنجدة الكتيبة الأولى فأنا الذى أكون أميراً للجيش المؤلف من الكتيبتين ، وخالفه أبو عبيدة بن الجراح ورأى أنه يستحق الإمارة للجيش وإلا فيمكن أن يكون هناك أميران : أمير للكتيبة الأولى وأمير للكتيبة الثانية .. ولما اشتد الخلاف قال أبو عبيدة بن الجراح « تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال : إذا قدمت على صاحبك فتطاوع ولا تختلف وإنك والله إن عصيتني لأطعتك » (رواه البيهقى وابن عساكر) (سيرة ابن كثير ، ص ٢٩٩) .

وكان خالد بن الوليد شجاعاً باسلا يتمتع بموهبة عسكرية نادرة ، قاد الأفواج الإسلامية الظافرة منذ زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خلافة أبى بكر ، ولكن عمر كان يكره بعض عاداته ، فأشار على أبى بكر أن يعزله من الإمارة ، فلم يصغ إليه أبو بكر ، ولكنه بلغ من إصراره إلى حد أنه لما استخلف عزل خالد بن الوليد من منصبه وجعله جندياً عادياً .

وكان خالد بن الوليد عندئذ يجاهد فى المعمعة ، خلال فتح الشام ، فسلمه أبو عبيدة بن الجراح رسالة من عمر بن الخطاب يأمره بالتخلى عن القيادة ، ثم اجتمع عدد من رجال الجيش فى خيمة قائدهم خالد ابن الوليد واستحثوه على عدم الإطاعة ، فأجابهم خالد بن الوليد : (إنى لا أقاتل فى سبيل عمر ولكن أقاتل فى سبيل رب عمر) إنه كان يقاتل من حيث كونه قائداً للجيش وسيقاتل من الآن كجندى عادي .

ولا يمكن أن يصل الإنسان إلى هذه الشخصية إلا إذا تسامى عن المقت والتذمر والحقد ، وعاش فى الله لا فى مطامع البشرية الحقيرة .

ثامناً : نصروا الدين أكثر مما بايعوا عليه :

لما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شهر شعبان (٢ هجرية) أن جيشاً مؤلفاً من ألف جندى مقاتل يتجه نحو المدينة ، ويقوده أعلام قريش ، ويتألف هذا الجيش من ستمائة جندى مدرع ومائة فارس ،

جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المهاجرين والأنصار فى المدينة ، واستشارهم فى الخطة التى يمكن اتخاذها ، فقام بعض الأشخاص من المهاجرين حسب المعتاد وقالوا : يا رسول الله امض لما أمرك الله .. فوالله لن نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن نقول لك : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون .

ولكن رغم هذه الكلمات التى أدلى بها رجالات المهاجرين طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الأنصار ، بقوله : (أشيروا على أيها الناس) . فقال سعد بن معاذ : يا رسول الله كأنك تشير إلى ؟ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم . فقال سعد بن معاذ : فامض بنا لما أمرك الله إنك لو أمرتنا أن نخوض البحر لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد .. وسوف ترى منا ما تقر به عينك .

وقد تقرر بعد هذا الحديث الخروج من المدينة لمناهضة الكفار ، والسبب فى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل الأنصار أكثر من مرة أشيروا على أيها الناس (موجهاً إلى الأنصار) يرجع إلى ما رواه ابن هشام فى قوله : « وذلك أنهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله إنا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت فى ذمتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف ألا ترى الأنصار عليها نصرة إلا إذا دهمهم العدو بالمدينة ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو بعيد عن بلادهم » (سيرة ابن هشام الجزء الثانى ، ص ٢٥٣) . فلم يكن الأنصار ملتزمين وحسب بما بايعوا عليه ، بل خرجوا ٨٠ ميلا بعيداً عن المدينة ، وهكذا فلم يعتذر الأنصار وأوفوا أكثر مما بايعوا ، وضحوا بأموالهم وأرواحهم فى موقعة بدر الخالدة.

تاسعاً : التركيز على الهدف والابتعاد عن الاختلاف :

« أخرج الطبرانى عن المسور بن مخرمة قال : خرج رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على أصحابه فقال : إن الله بعثنى رحمة للناس كافة فأدوا عنى ، رحمكم الله . ولا تختلفوا كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم فإنه دعاهم إلى مثل ما أدعوكم إليه، فأما من بعد مكانه فكرهه، فشكا عيسى بن مريم ذلك إلى الله عز وجل ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن يا رسول الله نؤدى إليك فابعثنا حيث شئت » .

إن الاختلاف دائماً يعوق سبيل العمل الاجتماعى ، ولكن خشية الله ملأت قلوب الصحابة ، حتى نسوا وتناسوا الخلافات ، ووقفوا أنفسهم على أداء واجبهم ، ونشروا رسالة الإسلام فى البلاد العربية وفى خارجها ، كما أمرهم رسول الله ، وبعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعكفوا على إحراز المال والمنصب ، بل انتشروا فى مختلف الأصقاع فكان كل بيت صحابى يمثل (مدرسة صغيرة) حيث كان يعلم الناس لغة القرآن ويشرح كتاب الله وسنة رسوله . وفى الوقت ذاته كانت جماعة من المسلمين قد انصرفت إلى الفتوحات والإدارة السياسية ، ولكن معظم الصحابة انصرف عن الشئون السياسية إلى نشر الدين ، واستغلال الجو الناجم عن الفتوحات الإسلامية ، وبفضل جهود هؤلاء الصحابة ومن جاء بعدهم من التابعين إلى أكثر من خمسين سنة خرج إلى الوجود ما نسميه الآن « العالم العربى » حيث لم يغير الناس دينهم فحسب بل غيروا لغتهم وثقافتهم وحضارتهم .

عاشراً : اقتنعوا بالجلوس فى مقعد خلفى :

وعندما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم أثيرت أول ما أثيرت مسألة الخلافة ، اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، وكان سعد بن عبادة

من أبرز سادة الأنصار ، فرأى بعض الأنصار أن يحكم عليهم سعد بن عبادة ولما علم المهاجرون أسرع رجالهم إلى ذلك المكان ، وخطب أبو بكر رضى الله عنه بهذه المناسبة فقال :

« أما ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش .. هم أوسط العرب نسباً وداراً ، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين (عمر أو عبيدة بن الجراح) فبايعوا أيهما شئتم » (سيرة ابن هشام ، الجزء الرابع ، ص ٣٣٩) .

ثم قام عمر وبايع فوراً أبا بكر بيعة الخلافة ثم بايع الباقون من المهاجرين ثم بايع الأنصار على يد أبى بكر ، وكان الأمر شاقاً على فئة من الأنصار إلى حد أن قال أحد منهم للمهاجرين : « قتلتم سعد بن عبادة » .

كان الأنصار أولئك الذين نذروا أنفسهم للإسلام وقدموا تضحيات لا تقدر ولا تحصى ، وحموا قافلة الإسلام حينما أخرجت من ديارها ، ولكنهم رضوا بأن لا يكون لهم نصيب فى السلطة والحكم .. ورضوا بأن ينتخب الخليفة من المهاجرين فقط ، ولا شك أن ذلك هو سداد الرأى والحكمة ، لأن قريشاً توالت فى يدها سيادة العرب طيلة القرون العديدة ، ولو كانت السلطة قد فوضت والحالة هذه إلى غير قريش لاختل النظام ، وأصبح من المستحيل القبض على دفة الحكم ، فكان هذا من رفعة الأنصار وواقعيتهم ، حيث أدركوا هذه الحقيقة واقتنعوا بالتخلى عن الحكم والسيادة ولكن هذا النوع النادر من الواقعية يندر نظيره فى تاريخ العالم .

أحد عشر : أعطوا الأمور قدرها وحقها :

كانت غزوة أحُدٍ من أشد الغزوات ضراوة حيث وثب شباب قريش بغيظهم على المجتمع الإسلامى الحديث الناشىء وثوب الليث المصور على

فريسته ، فكانت الدماء مسفوكة فى ساحة الحرب ، وفى الوقت ذاته أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه وتساءل : من ذا الذى يأخذ هذا السيف بحقه ؟ .. فأقبل عليه بعض الناس ولكنه لم يمنح أحداً سيفه ، ثم أقبل أبو دجانة وسأل : يا رسول الله ما حق هذا السيف ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « أن تضرب به العدو حتى ينحنى » فقال أبو دجانة : أنا آخذه يا رسول الله بحقه ، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفه .

ومشى أبو دجانة بسيف رسول لله صلى الله عليه وسلم مشية متفاخر طرب على هذه الثقة التى نالها من رسول الله ، فلما رآه رسول الله قال : « إنها مشية يبغضها الله إلا فى مثل هذا الموطن » .

وقد شد أبو دجانة على رأسه قماشاً أحمر ، دليلا على أنه لا يبالى الموت وقاتل بشجاعة بالغة ، فلم يواجهه شخص إلا ولقى مصرعه ، وبعد ذلك وقع أمر يحكيه أبو دجانة فيقول :

« رأيت إنساناً يحمش الناس حمشاً شديداً فصمدت له فلما حملت عليه السيف ولول ، فإذا امرأة فأكرمت سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أضرب به امرأة » (سيرة ابن هشام الجزء الثالث ، ص ١٤) .

ويروى صحابى آخر ذلك فيقول : إنى رأيت أبا دجانة « قد حمل السيف على مفرق رأس هند بنت عتبة ، ثم عدل السيف عنها » وكان من تعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجهاد أن لا تقتل امرأة(١) ولا يقتل الصبيان ولا الضعفاء . ولم ينس أبو دجانة هذا التعليم حتى فى غمار الحرب ، وأمسك بسيفه بعد أن أطلقه .

ويتضح من هذا الأمر كم كان أصحاب الرسول يمسكون عنان عواطفهم

---

(١) الا ان تكون محاربة او مساعدة على عمل حربى مباشر (المرجع)

وإن جميع عواطفهم كانت تمارس بمنطق الشعور بالمسئولية لا بمنطق العواطف وكان باستطاعتهم أن يلتزموا الهدوء والتحكم فى النفس ، حتى فى وجه الاستفزاز وإلهاب العواطف.. وكان بإمكانهم أن يبدلوا رأيهم ولو وصلوا إلى منتهى الغضب ولا مراء فى أن هذا الأمر ميسور قولا ولكنه من أشد الأمور عملا ، ولا يوفق إليه إلا من خشى الله واستحضر مراقبة الله له .

اثنى عشر : ارتقوا ارتقاء الشجرة :

لقد ورد فى القرآن مثلان من الإنجيل والتوراة ، فمثل التوراة يختص بميزات الصحابة الذاتية ، ومثل الإنجيل يبين ميزاتهم الاجتماعية .

يقول القرآن فى وصف الصحابة :

« **ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما** » (الفتح – الآية الأخيرة) .

وقد ورد فى الإنجيل هذا المثل فى هذه الكلمات :وقال إن ملكوت الله كشخص بذر بذوره فى الأرض ، وينام فى الليل ويظل يقظاً فى النهار وينمو البذر وهو لا يعلم أن نبات الأرض ينبت تلقائياً .. الورق ثم السنبلة ثم الحبة فى السنبلة .. وفى حين نضجت الحبة يسرع المزارع ليحصد بالمنجل فقد أصبحت المحاصيل جاهزة . (مرقص : ٣٢ – ٣٦)

فأخبر القرآن والإنجيل أن الارتقاء الاجتماعى لأصحاب الرسول يكون مثل الشجرة تكون البداية من البذر ثم ينمو البذر حتى يستوى على سوقه فيتحول إلى شجر غض مزدهر تدريجياً يعجب به الزارع ويغيظ بهم الكفار.

لقد كتب الله أن يتطور الإسلام تطور الشجر ، وقد تحقق هذا المشروع على يد أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن لم يكن ذلك أمراً سهلا

بل كان يقتضى الصبر والجلد والمثابرة ، ويقتضى أن لا يكون العمل بدافع من العواطف المثيرة الفورية ، ويقتضى أن لا يتبعوا أهواءهم ، بل يتبعوا قوانين الطبيعة ، ويقتضى الأمر أن يدوسوا أطماعهم ، ويدفنوا عواطفهم .

إن أصحاب الرسول كانوا أنموذجاً لهذا العقل الرفيع ، فإنهم أسلموا أنفسهم إلى الخطة الإلهية دون تحفظ .. ونتج عن ذلك أن الدين الإلهى قد استوى فى هذه الدنيا على عوده ، وقامت قائمته ، وأصبح حديقة دائمة نضرة وارفة الظلال ، لدرجة أنه لا يمكن الآن هدم هذا الدين ولو حاولت الدنيا كلها ذلك .

مشروع البعث الإسلامي

إن هناك أناساً كثيرين يريدون أن يروا مهمة إحياء الإسلام فى صورة مشروع أو خطة ، وهم لا يستطيعون أن يفهموا إمكانية النهضة بدون مشروع أو خطة واضحة القسمات والملامح .. وهذه نظرة خاطئة ، وحط من شأن حركة إحياء الإسلام ، وما من مشروع إلا وكانت تفاصيله عملا ما ، بينما حياة الإنسان أوسع من أن تنحصر فى رسوم وشكليات .

والحقيقة أن أكبر مشروع إنما هو إعداد الأفراد لتصميم المشاريع والخطط ، وليس منح مشاريع جاهزة فى أيديهم .. وهذا هو العمل الذى تقوم به الدعوة الإسلامية ، فإن الدعوة الإسلامية الحقيقية تكون الصحوة الفكرية ، والصحوة الفكرية تكون أشخاصاً يقومون بالتصميم والتخطيط .

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى التوحيد الخالص ، ولم يعط الناس شيئاً مما نسميه خطة أو مشروعاً ، غير أن الشخص الذى كان يتأثر بدعوته كان يجد خطة لعمله ، فكان يبدأ بالعمل داعياً إلى التوحيد

والمسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة لم يزودوا بخطة أو مشروع ، ولكنهم مثلوا الإسلام تمثيلا صحيحاً ، وبذلك التمثيل الصحيح دخل الإسلام مرحلة الدعوة العالمية .

والمسلمون الذين ذهبوا إلى المدينة قبل الهجرة لم يعطهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من (الخطة)(١) إلا بعض سور من القرآن ،

---

(١) لا اعتقد ان المؤلف يسعى الى التقليل من شان التخطيط فى الأمور التى تحتاج لتخطيط ، ولقد سال الرسول معاذا عن خطته اذا عرض له قضاء فى اليمن .. لكن المهم هو العمل والاخلاص فى اى موقع يحتله المسلم (المراجع) .

ولكنهم قاموا بعمل الدعوة والتعريف بالإسلام حتى أصبحت المدينة دار الهجرة ومركزاً للإسلام ، فإن إخراج الناس من الدين التقليدى وإدخالهم فى الدين الحى هى أكبر مهمة .. هذه المهمة تصنع الرجال الأكفاء الذين يجسدون المشاريع .

إن هذه المهمة تهز كيان الإنسان هزاً .. إنها توقظ فطرة الإنسان فيتفجر فيها ينبوع الحكمة الربانية ، فيتكون أناس ربانيون يتحركون فى التاريخ وكأنهم ينظرون بنور الله ، فيصبحون مهيمنين غير مفتونين ، أذكياء وأصحاب فراسة كالتى ذكرت فى الحديث النبوى : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » ..

إن ذلك الإنسان المؤمن هو أقوى إنسان على وجه الأرض وعنده الجواب على كل سؤال .. إنه يبحث عن أنجح منهج لعمله ، وهذه هى السمة البارزة التى أوجدها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه ، فلم يكونوا فى حاجة إلى أى شىء آخر .

والواقع أن الله قد أعطى لطبيعة الإنسان كل ما تحتاج إليه فى الحياة ، وفى أكثر الأحوال تتراكم عليها الأتربة وتحجبها الأقنعة .. وإن كشف هذا القناع عن طبيعة الإنسان إنما هو هدف الدعوة الإسلامية ، وعندما ينكشف القناع تتبدد الظلمة ، وتتحول طبيعة الإنسان إلى إشراقة كونية تتألق بها الأرض والسموات ، فعندئذ يرى الإنسان كل شىء فى شكله الحقيقى ، وإن الإنسان الذى يرى الأشياء كما هى يتيسر له إعداد المشروع كما يتيسر للشخص المبصر أن يصعد بمصعد أو على أدراج سلم إلى طوابق الأبنية الشاهقة .

وسأحكى هنا قصة توضح هذه القضية أحسن توضيح ..

كانت سيدة هندية تسكن مع زوجها فى طرابلس ، وكانت لا تعرف العربية ، وهى ربة منزل وليست لها علاقة بالخارج ، وذات ليلة أصيب زوجها بألم شديد فى بطنه ، ولم يكن هناك أحد يأتى بالطبيب إليها ، ولم يكن فى بيتها « هاتف » يوصلها بطبيب فى المستشفى .. ولكن الحب الشديد الذى كانت تكنه فى حنايا صدرها لزوجها أصبح عوضاً لكل نقص وخرجت من البيت فى غسق الليل لا يعوقها (عائق) عدم معرفتها العربية ولا جهلها بالطرق ، ولا عدم الوقوف على عنوان طبيب .. بل خرجت تهديها حرقة اللوعة والاضطراب ، ومرت بمسافات حتى وصلت إلى منزل طبيب باكستانى .. فجاء الطبيب وكشف على المريض وعلم أن هذا التهاب الزائدة الدودية وأن الجراحة ضرورية حالا ، فأخذ المريض فى سيارته إلى المستشفى ، وبعد عملية جراحية بأيام شفى الزوج من مرضه وعاد إلى بيته .

وكثير من أمثال هذه الحوادث تعترض كل إنسان فى حياته ... إنه يجد نفسه فى وضع لم تسبقه خطة عمل ، ولكنه يقاوم هذا الوضع حتى ينجح .

على أن مثل هذه الأحداث تعترض الإنسان فى الشئون العائلية الذاتية ولو خالط أحشاء الإنسان نفس الدرجة من الحب واللوعة لدينه لحلت كثير من الأمور الدينية ، كما يتم حل الشئون العائلية للإنسان بفضل هذا الحب العميق المتأصل . وبهذا الحب يعرف كل إنسان — بعد ذلك — مقتضيات الدين ومتطلباته ، ويقدم فى سبيله ماله وأهله .

وبالتالى يعرف طريقه كما عرفت السيدة المذكورة طريقها .

تساؤلات الناس والإجابة عليها :

إن الناس يتساءلون : « ما المشروع الذى لديكم .. ؟ » .

وا أسفاه .. كيف أخبرهم أن الضرورة لا تقتضى مشروعاً ، بل يحتاج الأمر إلى « قافلة مؤمنة » ... فقط .

إننا نريد أن لا يحدث حدث إلا ويسعى له أفراد من المؤمنين ، ولا يحدث برنامج ولا مشروع فى الحياة الاجتماعية له تأثير ، إلا ويوجد فيه أولئك الرجال الذين يجسدون كل مشروع وبرنامج ، ويفجرون خطة وعملا وإرادة وسعياً ، ولا يتحركون مثل تحرك الدمى وفق مشروع وخطة .

ذات يوم صلى الإمبراطور « أورنج زيب عالمكير » بالناس ، ولما رفع يديه بعد الصلاة ذرفت عيناه دمعاً ، وكان « سعد الله خان » قائماً وراءه . وعندما فرغ « أورنج زيب » من الدعاء سأله « سعد الله خان » قائلا : يا صاحب الجلالة .. إن راية (إمبراطوريتك) ترفرف من (كاشمير) إلى (راسكمارى) فهل ثمة أمل عالق بقلبك بعد هذا ؟ ... فسكت « أورنج زيب » قليلا ، ثم قال : يا سعد الله .. أنا فى حاجة إلى الرجال .

كان لا ينقص « أورنج زيب » مشروع ولا خطة ، وكانت لا تنقصه وسائل أو ثروة أو قوة ، ولكنه فشل فى دعم (السلطنة) المغلوبة لأنه كان ينقصه رجال ، ولو كان عنده جماعة من الرجال المخلصين الجادين لكان التاريخ مختلفاً لمن ينظره فى زمن لاحق .

إن (قضية البعث الإسلامى) تبحث عن رجل إنسان فى زحمة الأناسىّ .

وهى تبحث عن إنسان كم فمه خوف الله بين الناس الصائحين الناطقين باسم الله ..

وتبحث بين الذين يجرون وراء الدنيا - عبيداً لها - عن إنسان أقعدته الآخره ..

وتبحث بين من يبتهجون .. عن إنسان اضطر إلى البكاء من خشية الله .

وتبحث عن إنسان بين رافعى رايات (الأنانية) دخلت فى قلبه بشاشة الإيمان ووجد الله ، حتى لم تبق عنده إلا روح خالية من الأنانية ..

وتبحث عن إنسان بين المتحاربين باسم الدين تخلى عن التحارب والصراع

وتبحث عن إنسان بين رافعى لافتة (حاسبوا غيركم) اتخذ شعاره (حاسبوا أنفسكم) ...

هؤلاء (الأناسىّ) ينتظرهم الإسلام .. وهؤلاء هم الذين سيحققون للإسلام الهيمنة الفكرية ، وسيقودون (قضية البعث الإسلامى) محققين (المنهج والشروط) ..

إن الإسلام يحتاج اليوم إلى جماعة من الأفراد يخلصون إلى حد يمكنهم من رؤية الحقائق عبر الظواهر .

وإلى نخبة من الرجال الذين يركزون - بصبر - جهودهم على هدف ويتركون ما لا يعنيهم ..

وهو يحتاج إلى جماعة تحتقر الدنيا وتؤثر الآخرة إلى حد يسهل لهم كل تضحية ، ويبلغون فى الواقعية درجة تمكنهم أن ينظروا إلى محاسن غيرهم ويؤثروا على أنفسهم فى الحكم والإدارة .

إن الإسلام يحتاج الآن إلى رجال ينظرون إلى الحقائق حتى لا تحجبهم مسألة لفظية عن الحقيقة ولا تشوبهم شائبة العواطف ، حتى لا ينحرفوا عن الحق بسبب النزاع أو الشجار ، تتحرك قلوبهم حسداً لرقى شخص آخر يحبون الحقيقة أكثر من الظاهر ، وينظرون إلى المستقبل أكثر من الحال .

وخلاصة القول .. أنهم يعيشون فى الآخرة أكثر مما يعيشون فى هذه الدنيا ، يخافون مقام الله .. هؤلاء هم قوام الإسلام فى عهده الأول وسيكونون لبنات الإسلام فى عهده الثانى .

والواقع أن مسألة المشروع إنما هى مسألة إعداد وتربية للأفراد ، فإن الأفراد لا يخرجون من مصنع ، ولا يتكونون فى شعب من الشعاب الخارجية ، والطريق الوحيد لإعداد الأفراد هو إثارة حركة خالصة على أساس الدين القيم تمس فطرة الإنسان ، وتوقظه من منامه بالضرب على الوتر الحساس ، وتمزج فى فكر الإنسان صبغة الله كى يصبغ كيان الإنسان بها

ومثل هذه الحركة لا تخرج برد فعل لحال من الأحوال ، إنها ترادف معنى إيقاع نعم الله على أوتار الفطرة ، وإنها تشرح حكمة القرآن فى لسان عصره .. وإنها تدعو إلى ما دعا إليه الرسل .. وهى تظهر كأداة اتصال بين العبد وربه ، وهى تتمثل (الحس الإبداعى الإلهى) .. مثل ضوء الشمس .. وعبير الأزهار .. وإن آثار حركة كهذه لكفيلة أن تخرج فى المجتمع رجالا ربانيين يضمون بين جوانحهم كل خطة وبرنامج

إن تاريخ الأنبياء ليدلنا على أنه بالرغم من هذه الدعوة فإن الحركة لا يفيد منها إلا رجال يتميزون بخصوبة الفطرة ، وصلاحية النمو .. أما الأرض الصحراوية القاحلة فستظل قاحلة بعد هطول الأمطار أيضاً مثلما كانت قبل ذلك .

« والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا »
(الأعراف : ٥٨)

المهمة المطلوبة

بما أن الإسلام آخر دين ، فإن له الخلود والبقاء والدوام .

لذلك كان الحفاظ عليه — أيضاً — شيئاً ضرورياً ومطلوباً ..

ومما لا شك فيه أن بعض الحركات الإسلامية فى هذا العصر قامت بإسداء خدمات جليلة فى هذه الناحية ، فاحتفظت بقالب الإسلام الفكرى والعملى ، فثمة مدارس ومعاهد ومؤسسات تضطلع بواجب الحفاظ على علم الفقه والحديث والتفسير ... وثمة جماعات تنقل صورة العبادات الإسلامية من جيل إلى جيل ، وثمة مطابع ودور للنشر تقوم بطبع القرآن والحديث بصحة كاملة ، فكل هذه الأعمال مفيدة فى حد ذاتها ، ولكنها أعمال (حفظ وصيانة) وليست من جوهر عمل الدعوة .

فأما مسألة إحياء الإسلام كدعوة عالمية فإنها لم تتحقق بعد فى العصر الحديث ، حتى ليبدو أن الناس لا يشعرون بأهمية ذلك ، ولذلك كثيراً ما يسمون غالب الأعمال باسم « الدعوة الإسلامية » وليس لها صلة تصلها بالدعوة الإسلامية من قريب أو بعيد .

فالطريق الوحيد لبدء عمل إسلامى حقيقى فى القرن الخامس عشر الهجرى هو القضاء على هذا الوضع الذى يسمى كل حركة سياسية فى العالم (حركة إسلامية) ...

إننا نشاهد المسلمين فى كثير من البلدان يثيرون الضجيج والأحقاد والقلاقل ضد ولاة الأمور ، فيشنون حركة ضد سلطة (غير إسلامية) فى مكان ، وضد (الحكام المسلمين) فى مكان آخر .. وتارة يناضلون

نضالا إسلامياً ، ويجاهدون بأقلامهم وألسنتهم تارة أخرى .. ويعملون حيناً تحت فلسفة (السياسة الإسلامية) ويتحركون فى حين آخر دون فكرة أو فلسفة ، ويتخذون عنواناً قومياً فى بلد وعنواناً نظامياً فى بلد آخر . ورغم هذه الفروق والاختلافات يتحدون على شيء واحد وهو عدم استخدام الإمكانات الجديدة للدعوة إلى التوحيد والإنذار بالآخرة ، ويستنفدون طاقاتهم فى الكفاح ضد الخصوم المزعومين بطريقة لا تعود عليهم بفائدة أو خير أو بركة .

والواضح أن المسلمين قاموا بأعمال ذات آثار عكسية فى هذا العصر ، لقد أزال الله العراقيل السياسية الموضوعة فى سبيل الدعوة فى عصر العلم حتى يقوم المسلمون بنشر رسالة الله بين عباده ، وينذروا الناس بحساب الآخرة ، ويحيطوا أبناء آدم علماً بالهدف الذى خلقوا لأجله ، ويخبروهم عن يوم الحساب الذى هو آت لا ريب فيه .

ولكن المسلمين لم ينصرفوا إلى هذا الهدف .. بل وضعوا بأنفسهم عراقيل سياسية فى طريقهم بأسماء جديدة ، فترى أن (الجهاد السياسى) أصبح الشغل الشاغل لكل مسلم ، لكنه مشغول — كل الانشغال — عن (الجهاد الدعوى) .

ومعروف أنه جاء فى القرآن أن الله ينصر الذين ينصرونه ، وأن الله يفتح إمكانات جديدة لدينه فى كل عصر .

وعصرنا هذا يقتضى أشخاصاً يقومون بإدراك هذه الإشارة ويكونون رهن إشارة السماء ، ولقد أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إشارة السماء ، وكرسوا حياتهم للعمل .. فكانت النتيجة هى ذلك الانقلاب الذى غير مجرى التاريخ الإنسانى ..

إن نزول المطر هو — فى حد ذاته — عبارة عن إعلان لإرادة الله الصامتة ، حتى يبذر المزارع البذور فى الأرض ، فيسخر الله نظام الكون لتأييد هذا العمل، حتى تعود هذه البذرة فى صورة (غلة) وافرة إلىالمزارع والمزارع يدرك هذه الإشارة الإلهية ، ويوقف نفسه لتنفيذ هذه الخطة الإلهية فيعود هذا العمل عليه بالمحاصيل الزراعية الوافية ، وكذلك أحدث الله فى هذا العصر فرصاً جديدة تأييداً لدينه بعد عمل دام ألف سنة ، وهذه الفرص هدفها تأييد دعوة التوحيد ونشر الإيمان والشعور بالآخرة .

إن العمل الذى كان يتابع بتأثير قوة المعجزات وخوارق العادات فى الماضى ينبغى أن يتابع بقوة مؤشرات العلوم الطبيعية فى الحاضر .

وإن العمل الذى كان يمارس فى جو من العصبية وسيطرة العادات ينبغى أن يمارس الآن فى جو من التسامح والتعايش السلمى .

وإن العمل الذى كان يجرى فيما مضى بسرعة حيوانية يمكن الآن أن يجرى « بسرعة ميكانيكية » ..

إن هذه هى توجيهات الله وهداياه فى هذا العصر فى حدود فقهنا البشرى إنه أبدع إمكانات جديدة فعلا .. وقد ظلت ولا تزال هذه الإمكانات تدعو طائفة من عباد الله أن تستغلها حتى تتحول إلى حقيقة واقعة .. ولكن القيادات الإسلامية تجاهلت ، أو لم تستطع فهم توجيهات الله ، واستيعاب طاقات العمل الجديد ، واستغلالها ، فأثارت الصراعات السياسية التى قضى الله عليها بعمل استمر ألف سنة ، وبالتالى صبغ المسلمون الدعوة بصبغة سياسية وقومية ، وجعلوا من الإسلام خصماً للحكومات ، ثم قالوا : هذا هو الدين الذى رضى الله به ، واختاره للمسلمين ، فأدى ذلك إلى اشتباكات مع الأمم المدعوة فى كل مكان ، وبقيت جميع الإمكانات غير مستخدمة .

لقد ضيع المسلمون مدة تزيد على قرن ، حتى استيقظ الشيطان وأحل نوعاً جديداً من الشرك اسمه (الشيوعية) نجح فى أن يقوم مقام الشرك القديم

وقد ظهرت العقبات فى البلدان الشيوعية والسائرة فى طريقها ، أمام (الدعوة) ، على النحو الذى كان فى الماضى أيام كان الشرك حاكماً ومتربعاً على العرش .. غير أن الفرص لا تزال سانحة حتى الآن فى العالم غير الشيوعى ..

° ° °

وفى مستهل القرن الخامس عشر الهجرى يمكن البدء من جديد ، لاستئناف عمل لم نوفق فيه على امتداد القرن الرابع عشر الهجرى حتى فى العالم الذى لا يسيطر عليه الشيوعيون ..

إن هذا العمل هو البدء الصادق (بالدعوة) .. فلعلنا نقهر عصر الشرك الجديد (الشيوعية والعلمانية) وأيضاً لعلنا نمشى فى الطريق الذى تدفعنا إليه كل المؤشرات الكونية المترجمة للإرادة العليا .. سائرين نحو بناء إنسانية مؤمنة .. وحضارة تعمل للدنيا وترجو الآخرة فى سياق واحد .

تم الكتاب والله الموفق

رقم الايـــداع

٨٤/٥٢٣١

دار الصحوة للنشر والتوزيع
القـــاهرة
ش جمال عبد الناصر
بجوار عمارات المهندسين
حـــدائق حلوان

قضية هذا الكتاب

هذه هى الترجمة العربية لكتاب « إحياء الإسلام فى المنظور القريب » للمفكر الإسلامى الهندى الكبير (وحيد الدين خان) الذى عرفه قراء العربية من خلال كتبه الكثيرة التى يقف فى قمتها « الإسلام يتحدى » و « الدين فى مواجهة العلم » وعندما أوكل إلى العلامة الكبير « وحيد الدين خان » مراجعة الكتاب ، وفوضنى فى نشره .. رأيت أن الإسم الذى اختاره الأخ المترجم قد يجد بعض الاعتراضات من حيث أن الإسلام فى غير حاجة إلى (إحياء) وإنما الذى يحتاج إلى هذا (الإحياء) هم المسلمون أو هى (علوم الدين) و (طرائق عرضه) ، وليس الإسلام نفسه .. فدين الله (الإسلام) كما وصفه أحد المستشرقين « غضّ طرى كأن عهده بالوجود أمس » وتخلصاً من مثل هذا الاعتراض رأيت تسميته « قضية البعث الإسلامى–المنهج والشروط» مؤكداً أن هذه التسمية تتمتع بالدقة نفسها التى تتمتع بها التسمية السابقة ، وهى تعبير صحيح تماماً عن (قضية هذا الكتاب) .!!

د . عبد الحليم عويس

جنيه